الظلال

والأشرعة

كمال لعرابي

الظّلال والأشرعة

رواية

كلاما للنشر والتوزيع

كلاما
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2020
جميع الحقوق محفوظة للناشر

ردمك: 978-9931-9657-7-0
الإيداع القانوني: السداسي الثاني-نوفمبر 2020
صنف العمل: رواية
العنوان: الظِّلال والأشرعة
المؤلف: كمال لعرابي
التصفيف: المؤلف
تصميم الغلاف: المؤلف

كلاما للنشر والتوزيع

التحصيص الاجتماعي 2 بلدية هواري بومدين -ولاية قالمة
kalamaedition@hotmail.com
Tel/Fax : 037 24 11 19

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إهداء

متحرِّرة على الدوام تسألني:

– هل روايتك هي كل شيء أو هي لا شيء لديك...؟

وظلٌّ دون تذمر، يرافق ثائر من أجل كسر قيود الذل والمهانة.

أمـــــــــــي...

التي ولدتـــــني على عتبة التقيد بمبادئ الرجال، والسير في نهجهم، فولدت أسدا لا أخاف من الضباع.

لهم أهدي روايتي.

جدول المحتويات

الحبر الأسود... 17
فكرة السفر... 79
عيون ساهرة... 109
قبور الأحياء... 153
القناع والرمال... 171
أخطر مهمة... 193
صباح الجمعة ... 223
عاصفة الموت... 235
عدوى مزمنة... 247
كابوس قاتل... 261

التقديم

عندما انتهيت من قراءة رواية: "الظِّلال والأشرعة "شعرت بشيء من الأسى يتسلّل إلى أعماقي عبر تلك الشقوق المفتوحة في تلك الأغوار البعيدة لحورية السمراء ولسي مروان، وكأن سيزيف يتمثل أمامي، يحمل الصخرة على كتفيه ويرتقي الجبل ثم تتدحرج الصخرة فيعود ليبدأ من حيث انتهى. وكأن عشتار تلملم بقايا تموز وتصنع حلما لا ينتهي متشبِّثة بأمل الحياة.

فهل سي مروان سيزيف؟ هل هو أنا وأنت وهذا الوجع الذي نحمله صخرة تأبى إلا أن تتدحرج كلما تصورنا أننا وصلنا إلى برِّ الأمان؟

وهل حورية السمراء هي عشتار؟ هل هي أنا وأنت وهذا الحلم الذي نستمسك به حد الرُّعاف ولا نملُّ ولا نكلُّ مهما تعاظم النزفُ فينا؟

عندما انتهيت من قراءة الرواية شعرت بألم يتغلغل في ذاتي المتشظية -لأجيال كاملة – وأنا أفارق شخصياتها الممتدة على مدى مساحة الوطن... رأيتهم أهلي، رفاقي، أنا، أنتم.

صافحتهم وصافحوني، امتدت اللُّحمة بيننا وصاروا من عائلتي الممتدَّة عبر مساحة هـــــــــــــذا الوطن: شرقا، غربا، شمالا، جنوبا: «لا لفتنة التقسيم» ص 214.

أبحرت في يمِّ الرواية بلا مجاديف قارئة عابرة، وفي لحظة شعرت أن عليَّ الغوص في الأعماق، واستخراج اللآلئ فما كان عليّ إلا أن استأنس بجون روبرت فيرث (John Rupert Firth) الذي يرى " أن المعنى لا يفهم ولا يستوعب إلا من خلال السّياق" ، وأركن إلى ستيفن أولمان (Stephen Ullmann) الذي يقول: " إن السّياق يجعل المعنى سهل الانقياد " و أستنجد بابن منظور والزمخشري وأغوص في حاضرنا وماضينا بحثا في دلالات الألفاظ الموظَّفة في الرواية (الظّل، سي مروان ، حورية السمراء، قوس الشَّـــرق، فاهد، الأشعث، الجمعة، العـــــين الماكرة، الحبر الأسود، رجال الخفاء، ليليث...) فلم يكن كمال لعرابي الذي يتقن عدة لغات سائحا على شط الكتابة باللغة العربية، وهو الذي شُغِفَ بها فتعلَّمها في وقت متأخر وأعطاها من روحه فبادلته الحبَّ بالحبِّ، وزاد وهج الإلهام لغته رونقا يجعلك تفتتن بها حد العشق، فتبحر في فصول الرواية ومشاهدها دون أن تشعر بالملل أو السأم، بل تلتصق بالشخصيات حتى الالتحام وتشترك معهم في طرح الأسئلة: من ؟ كيف؟ متى؟ ولماذا؟ وتبحث معهم عن الإجابات.

هل الرواية في هذا المنحى تاريخية؟ سياسية؟ أم هي رواية تستنهض الوعي فينا وتدعونا إلى أن نستقرئ تاريخنا بمنطق العقل فهو وحده يجدِّد فينا روح الأمل وروح الاستمرار، وهو الإسمنت المسلَّح الذي يشد العضد للعضد

«لن أسمح لهم مطلقا، تاريخنا هو الرابط والملاذ حتى لا نكون كغبار الخريف تنقله الرياح الموسمية» ص 215.

وأن نفهم علاقتنا بالآخر بمنطق العقل أيضا «لكنهم يريدون إبادة المعمورة ليسكنوها وحدهم» ص 280.

رواية: «الظِّلال والأشرعة» ملحمة شعب.. ملحمة أمة.. تاريخ غائر في النضال من أجل الحرية وحاضر يتنفس الحرية ويناضل من أجلها «فوق أكتافهم دم الأمانة والمؤتمن الذي هلَّل سلاماً أبيض ممزوجاً بالأخضر لون المروج» ص64. في الطريق تسقط الأرواح لكن تستمر المسيرة، وإن تظافرت الأدواء وكان الوباء وعظُمت المأساة فمن تحت الأنقاض تطلع أرواح أخرى تتنفس الحرية «لماذا يتقدم عمري وأنا أكافح أعداء الخفاء والشيطان الدجَّال؟» ص244.

ألا يقول الأديب والمفكر التونسي محـــــمود المسعدي: «الأدب مأساة أو لا يكون؟ »

وكذلك أديبنا جسَّد مأســـاة شعب في هذه الرواية الملحمة، لقد مارس كمال لعرابي في روايته التجريب في وعي تام، وامتطى صهوة الحداثة وما بعد الحداثة، فاستطاع ترويض الدّلالة بمخيال رؤيوي في منحاه الشمولي، فشكّل منظومة إبداعية متفردة متجاوزا النمـــطية في كتابة الرواية، مبتــكرا أسلوبا جديدا خاصا به - علامة مسجلة

باسمه - ونهج نهجا مغايرا للسائد، واستطاع التحكُّم في السّرد، وترويض المبنى العام للحكي في أسلوب سلس، وخلق فضاءً جمالياً قوامه الاختلاف والتفرد والإبداع والحرية فجاءت الرواية متفردة شكلا ومضمونا.

الأديب كمال لعرابي هو في الأصل سيناريست ومؤلف لمصنفات أدبية مذاعة، أبدع في كتابة السيناريو، ووقَّع بقلمه عديد المسلسلات منها مسلسل: "صبر أيوب" وأفلام قصيرة مثل فيلم : "سراب الأفيون " وله أفلام طويلة أهمها فيلم " الثائر" الذي يروي قصة الشهيد: العقيد علي ملاح، كما قدَّم أفلاما وثائقية كثيرة منها: ذكريات الجبال (من 03 أجزاء) فكان انتقاله إلى الرواية سلسا بل كتابة السيناريو - وهي التي تلتقي مع الرواية في الكثير من العناصر، جعلته فنَّانا مـــــــــاهراً، وكاتبا متمرِّسا في صناعة الأحداث، ورسم الشخصيات، واستغلال تقنيات الكتابة السينمائية فأعطت الرواية زخما، وتكتيكا فنيا بديعا، ومكَّنته من ضبط عدسته كمخرج على الحركات الداخلية، والخارجية لأبطاله، فكان الاقتصاد في السّرد، والبيان في وصف الشخصيات واضحاً ومبهراً.

وجاءت الرواية بفصولها العشرة مشاهد سينمائية متلاحقة ومتلاحمة، ترسم أمام القارئ شاشة كبيرة فيتتبع الأحداث، يستقصي أخبار الثاني والعشرين فبراير، أسراره

وخباياه، ويرافق الشخصيات دون ضجر بحثا عن الظّل: من يكون؟ كيف جاء؟ أين هو؟ ما شكله؟ ما لونه؟ هل هو حقيقة أم خيال؟

من البطل؟ من البطل الضد؟ من يحرّك خيوط اللعبة؟ ومن يرسم تفاصيل مأساة تأبى أن تنتهي، مأساة جذورها غائرة في الزمن لكن الحلم ب " فرح " لا ينتهي أبدا «لا شيء دون ثمن ولا ثورة بدون ضحايا» ص 216.

"الظِّلال والأشرعة" رواية تحكي حاضرنا، تسرد ماضينا وترسم ملامح مستقبلنا من خلال مسار شخصيات انتقيت بعناية.

رواية تطرح أسئلة، وتقدِّم الكثير من الإجابات لأسئلة طالما أرقتنا، ونحـــــــن نبحث عنها في لغة فيها الكثير من الإبداع، والخلق وهمس الشعر، لغة سلسة متناغمة، صور سينمائية مبهرة تشدّ القارئ حتى في أقسى مشاهد الأسى العارم.

رواية ترفض الخيانة والتخوين، وتمجِّد عظمة النساء والرجال، أولئك الذين أهدوا الوطن ذواتهم في كل مراحله دون أن يتراجعوا عن الفداء «الرجولة ليست كلمة توحي بالمذكر، وإنما هي الشَّهامة والأخلاق والمواقف البطولية والإنسانية» ص197.

رواية مفعمة بالمشاعر الطّالعة من نبض هذا الجزائري الذي جُبل على النِّضال من أجل الحرية، والحب والحياة، «لا أعلم إن كنت أحبك لأنك سمراء أم لأنك توحين بالقدر الغريب ؟؟!» ص 61.

رواية غنية بالرموز التي لا يمكن التغافل عنها، وقد أعطتها بعداً جمالياً، وفنيا يجعل القارئ يتتبع هذه الرموز من أول الكلام (الإهداء) بل من الغلاف إلى نهاية متن الرواية.

رواية تحفِّز القـــارئ على أن يفكِّر، وأن ينزع عنه ثوب الخمول، وتقبل كل ما يقدَّم له على أنه الحقيقة المطلقة.

رواية تدعونا إلى الخروج من صراع الغوغاء إلى صراع الأفكار، وإلى الخروج من صناعة الخـــــــــــراب إلى صناعة الحياة، والانتقال من صناعة الأسماء إلى صناعة الأوطان. إنها رواية جديرة بالقراءة، جديرة بأن تكون فيلما سينمائياً ضخماً.

هنيئا للأديب كمال لعرابي روايته الثالثة، هنيئا للأدب الجزائري رواية عنوانها:

"الظِّلال والأشرعة".

نسيمة بن عبد الله

الجزائر 21 جوان 2020

"حيث تكون الحرية يكون الوطن."

-بنجامين فرانكلين-

أيُّـــــــــها القراء...

أكيد أنتم تبحثون عن الحقيقة في فصول هذه الرواية والأحداث التي وضعتها بين أيديكم، فيطرح السؤال نفسه عليكم ملحاً:

– هل هي حقيقة أم خيال...؟

سأقرُّ لكم...

الحقيقة ليست تعجيزاً، فإن أنكرتم الحقيقة التي بين أيديكم ستجدونها خيالاً، ولكن إن صدقتم الخيال وأنتم تقرؤونه في صفحاتي العابرة يتجلّى لكم في الوجه الآخر حقيقةً.

كمال لعرابي

(١)

الحبر الأسود...

انتابه جنون العظمة.. يتأمَّلها بعينين غائرتين، في تلال الأمس يتابع شظايا لهيبها المتطاير فوق مكتبه، يتأمَّلها كل مرَّة أبدت رقصة غريبة مختلفة عن سابقتها، مدقِّقاً في حركاتها وإغراءاتها كثعبان الأودية، ينساب بين مياهها الباردة.. لعلَّه الأسود من استفز ليله اليوم، وقد استباح مكتبه البارد جدا.

يتأمَّل زوايا الغرفة تارةً، وقد كساها بعض الضوء المنعكس من شراشف النافذة المغلقة، وفتحة باب قد تركها الحارس وراءه عندما همَّ بالخروج، فلم تستهوه يومـــــا تفاصيل الجسد الغارق في التيه، ولا حكايات الليل وولعه.

اليوم...! وحدها من استطاعت أن تكشف أوراقه، وتنثرها على مكتبه، ولم تكن امرأة فضية من زمن دوتوشافسكي أو حرابين المعابد الصمّاء، ليست كغيرها من النساء، ولا تشبه حتى عنكبوت الأرملة السوداء، شبقية الفتنة في أعزِّ تجلياتها وهي تستبيح أفكاره...من جعلته ملكاً لها هاته الليلة بالذات: الفتنة القاتلة من فاه السبات.

جلس سي مروان إلى طاولة تبعثرت عليها مجموعة أوراق تنتظر الترتيب، وزوجته قـــــوس الشّرق ذات الثلاثين ربيعاً، الشقراء المستديرة الوجه، عيناها واسعتان، جميلتان كحبّات اللوز، تلمعان كلؤلؤ أسود نادر، فوق أنفها الصغير

الذي ظلّل ببسمتها وهي تقف بطول قامـتها وشعرها المسرَّح، يلمع كمن سقيه بماء سحري.

انتظرت منه الانتباه، لكنه انهمك في التفكير...

يكتب ذكراها رسالة:

– يجترُّ حرفي هاضما معاني الحياة، شاكياً باكياً فوق نافذة العمر...فلا تندهشي أيتها الثائرة.

دموع سي مروان قطرات مكلَّلة بعطر الأمل، كتبها ونحتها فوق صدر الانتظار وزوجته قوس الشرق مقاطعة له قائلةً:

– الانتصار على ماذا؟

على سذاجة بيوت الخرافة والقدر المحتوم!

تأنَّى قليلا ثم أكمل الحديث قائلاً:

– لكن...! القدر مقيّد بكتاب من عند الخالق..

العفو على وقاحتي زوجتي قوس الشرق.. تأكدي.. كل هذا صحيح.

أراد سي مروان معرفة الذات، لذلك استفسر عن بكاء الأحاسيس وموتها، وقد بدأ من جديد في سرد الحكاية باحثاً في الأعماق عسى أن يجد ما يزيل السؤال، وقوس الشرق عاتبة:

– إذن...!!! تريد الخوض في بركة الأحزان؟ تريد البحث تحت ظلال الأيام؟ وليس جميلا ما ستكتشفه.

لم تخبره ولم يعلم قط أين وصلت، علم فقط أنها من نقطة نهاية المشوار بدأت سيرها بخطى متعرِّجة يثقلها الألم والحزن، من أيام تقرأها مدوَّنة على الصور المعلَّقة فوق جدران النسيان.. فهل تراه يجدها الأمل ويزورها الفرج عاجلاً؟

سكتت قوس الشرق قليلا نافضةً التمني، وبعد التأني أكملت حديثها في حسرة، عصرت دموعاً علقت على خديها مأساة برّاقة:

– لا أصدق أبدًا أنه سيزورها.

– أكيد لن يفعلها.

– إذن أنت تؤكد غيابه واللوم والعتاب...؟ لم تتوسل لك أنت، إنها تخاطب القلب الذي هجرها.

– لا تستعجلي في الحديث، نحن في البداية.

– أنا لا أستعجل في الحديث، هو يستعجلني ويريد المضي قدمًا، فلا يريد رؤيتي ولا يريدك أن تراه.

رآهم يكتبون بالحبر القاتل فوق أوراق الفتنة السوداء، ولم يواجه تلك الفتنة التي تكرَّرت بما حدث.

منذ أن بدأت الشمس تلمُّ خيوطها الذهبية معلنة بداية ليلتها الحالكة من ليالي القحط، والذباب يحوم حولها بينما هي واقفة على عتبة اليوم تخاطبه بلهفةٍ، ولم تعلم إن سمع نداءها وسط ذباب حام على أزهارها...ذئاب بشرية متعطشة للجسد.

في زاوية مقابلة للطريق انتــظرت حورية السمراء متلهفةً، تنظر في كل مكان وتتمتم، ولم تكن تعلم إن كانت تخاطبه أم أنها تخاطب شيئًا ما بداخلها، وغايتها أن يسمع نداءهـا وأن يفهم قلقها، فتنهدت من أعماق قلبها المتعب الحزين، ليخرج السؤال طالبًا الاستفسار، مخاطبًا صورة أمسكتها بين أصابعها ملمِّحاً لعدم قدومه.

كلام، وثرثرة غير مفهومة:

– أين الفرج يا إلهي؛ فأنا لا أراه قريباً؟!

– اليوم كباقي الأيام ناكر للمعروف، ولم أحاول بناء ما هدَّمه فساد العقول، واليوم أسألكم، فما نحن فاعلون؟ وكبير قومنا يبصم بخمسهِ خامسةً؟!

جلس سي مروان على الأريكة بجانب زوجته قـــــوس الشرق، يسمع لتلك المذيعة تقرأ من رســـالة أودعها عاجلةً، مخاطباً فيها الفضليات والأفاضل الذين قلَّدوه منذ أعوام خمسة مسؤولية الرئيس، سمعها حتى النهاية ثم نهض

وأطفأ التلفاز هامًّا نحو الباب خارجاً، وقوس الشرق تحدِّثه قائلةً:

– لا بد أن توصل الظرف الذي أعطي لك اليوم...!! الوقت يداهمكم، أمنيتكم أنتـم رجال الخفاء أن تموتوا في سبيل الوطن، وليس في سبيل العفن، فدماؤكم لها فداء، وولاؤهم للشيطان سم ناقع.

خـرج سي مروان مسرعا.. ركب السيارة، وقاد على الطريق يضرب بين كفي يديه، فقد علم أن بينهم وبين الهلاك مسار نملة تتبضَّع...؟ وعندمـا وصل ترجَّل حاملاً بين يديه ظرفًا بداخله ملف، ولم يدْرِ لمن يعود...؟ لا يعلم إن كان لكبير القوم...؟ لجماعة البيضاوية أو لسرب بعوض؟ أعلنها واضحةً:

– ممكن أن يكون للأفواه المدنَّسة، لكنه ظرف لابد أن أوصـــله في عجلة، فالأمانة أول فصل في كـتاب الحكمة، فنحن لسنا بأوصياء على الأمة، بل وكلاء أمناء يجب علينا أن نؤدي الأمانة.

وصل سي مروان في وقته المحدَّد.. ترجَّل من السيارة ثم وقف ينظر في تلك الفيلا قبل أن يخطو مسرعاً نحو مدخلها: هي قصر من طابقين، تحفة من الفن المعماري القديم مقسَّم إلى غرف، توزعت في أنحائها التماثيل المتقنة النحت والمتنوعة وعلِّقت على جدرانها لوحات فنيّة عالمية، تتوسطها نقوش ورسومات لأبراج فلكية.

لمحه الحـــــــــارس من داخل الغرفة المبنية بالقرب من المدخل، فغضب وخرج ليقف في وجهه محدِّثاً إياه بانزعاج طالباً منه التوقف:

– إلى أين أنت مسرع هكذا؟

في تلك الأثناء.. شاهد سي مروان كلباً أسود يحك بذيله بين رجلي الحارس، يطالبه بالرأفة، فركله حتى نبح آسفاً، هارباً يجرُّ ذيول الحسرة، تركت سي مروان عاجزاً عن إخفاء غضبه وغيظه من الحارس الديكتاتوري فحدّثه قائلاً:

– تظن أنني أريد رؤية وجهك أنت؟ اسمعني جيدًا.. أنا قلق فأرجوك ألا تستفزني.

شرارة غضب انبعثت من عينيه الزرقاوين، محدِّقاً في سي مروان الذي رأى فيهما جنًّا يبحث عن جسد يستوطنه.. أشار له بيده لكي يتوقف قائلاً بحزم وعزم:

– توقفْ.. لن تدخل قبل أن يُؤذنَ لك.

أخرج سي مروان سيجارة، أشعلها ودون وعي أخذ يدخنها بشراهةٍ قبل أن يلتفت إليه، ويطلب منه أن يخبره أنه قد قدم ولن يعود دون رؤيته، فشعر الحارس بنفاذ صبره، ما جعله يسرع بتمرير رسالته عبر جهاز الاتصال الداخلي بينما

سي مروان يلتفت يمينا وشمالاً، غاضباً.. تخيَّله ذبابة لابد من سحقها:

– لا أريدها أن تقف في وجهي ثانية.

لكنه.. عاد بعد برهة قائلاً:

– إنـــــه غائب...! لقد خرج منذ أسبوع ولم يعد بعد، والآن يمكنك أن تغادر فلا عمل لك هنا.

أغضبه دون وعي فأسرع نحوه قائلاً:

– أنت تمزح يا هذا...!

لقد أصرُّوا عليَّ أن أقدِّم له الظرف هذا اليوم، وأنت تخبرني أنه غائب...!؟ لن أرحل قبل أن أسلمه إياه.

نظر إليه الحارس راجياً ثم خرج من باب ضيق، متقدِّما نحوه واضعاً يده على كتفه، راجياً أن يفهم بأنه مأمــور لقول ما يريدونه، كونه خادماً مطيعاً:

– كما قلت لك: الزعيم لا يستقبل زوارًا.

– لست زائرًا...!؟ أنا شبح...!!

أرغب فقط تسليم الظرف اللعين له ثم أرحل.

طأطأ الحارس رأسه لعدم رضاه وتعذر قناعته بما أخبره سي مروان، فأحكم قبضته مهدِّداً إياه، فإن سمح له بالدخول فقد حكم عليه بالموت لا محالة، ولهذا صرخ في وجهه قائلاً:

– ترحل من هنا وإلاَّ...؟!

فتح سي مروان باب السيارة وركب غاضباً، ثم أخرج هاتفه فأجرى مكالمةً سريعةً، ولبرهة فقط سمع طـــــــرقا على النافذة، وعندما فتحها حدَّثه الحارس بلباقة قائلاً:

– تفضل إنه في انتظارك.

دخل سي مروان مدخل القصر، وسلك برفقة الحارس سلالم أخرجتهما على الرواق المظلم، رواق بدوره قادهما إلى رواق ثان وثالث، ومشى بخطى ثابتة وراء الحارس حتى خرجا في فناء مغطى بكروم العنب، ثم دخلا باب الرواق المظلم، وتلك اللافتة المعلّقة على إحدى جدرانه: مسكن أشباح الظل الفتيّة...

مشى سي مروان وراءه في صمت، حتى وصلا أمام باب فولاذية ثم طرق الباب وفتحه حارس آخر من الداخل، تبادلا النظرات وأمره مبتسماً:

– أوصله..

قد طُلب مني إدخاله.

دخل سي مروان وأغلق الباب الفولاذي وراءه، فمشى بجانب الحارس حتى وصلا إلى مكتب الزعيم: رجل يقف في ظلِّ غرفة مظلمة تقريباً، وعلى جدرانها صوّر لشخصيات عديدة-مرَّت عبر ممرِّ السيادة ثم غادرت دون رجوع- وبالقرب من النافذة مكتب من الأثاث القديم، مصنوع من الخشب الأحمر، تراث بقي من زمن الأباطرة والملوك، وفوقه أوراق مبعثرة وعلبة سجائر، وولاَّعة من الفضة الخالصة، وفي زاوية انتصب العلم نصب الشهامة والإصرار، والزعيم هادئ غامض، اسمه أرعب الكثيرين بمجرد لفظه، ولد وترعرع على حب الوطن؛ فحمل أمانة رفاق دربه في النضال واليوم أصبح نحيف البدن، بنظرة عيون أسد هيبته في صمته، ناصيته عريضة يختفي وراءها الوقار والحنكة، بشرته بيضاء، وشعره ما بين الرمادي والأسود، غلب عليه الناصع الأبيض مخفياً للسواد.

وقف يداري ستائر النافذة المغلقة، يتجسَّس من خلفها على مشهد يحاول استدراكه خوفاً مـــــن أن يكون متساهلاً، فأعطى له سي مروان الظرف فوضعه فوق المكتب وتحدَّث في غضب:

– سمعت الخبر...

لقد سمعت كل شيء، وما خشيته قد وقع.

لم يتمالك نفسه ولم يشعر بيـــــــــده تنفلت عن إرادته، وبقبضة من حديد ضرب ضربة فوق مكتبه، فارتعش الخشب وتموَّجت أوراق الذكـــــريات على وقع زلزال الغروب، ليوم تحالف فيه الذئاب ضد عرين الأسد. تذكّر الأنثى تزخرفها مخالب الأسود بالسلام، والمروج التي كستها الدموع الحمراء أيام الخوالي، فلم ينتبه لسقوط دمعته الغاضبة رغماً، ولم يتمكن من تفسير ما حدث، فتساءل قائلاً:

– خطّطت لكل شيء بدقَّةٍ متناهيةٍ، لكن...

لم أنتبه لخطتهم الدنيئة هذه ؟!

خطة دنيئة تبنوها لدناءة قلوبهم، أفكار سكنها الحقد والغلُّ فلا يمكن للزعيم تحمّل الحقد القديم عوضهم، ولن يحمل حقدهم فالذئاب بينهم منذ الأزل، لكنهم أسود منذ ولدتهم اللبؤة، فمن أراد أن يعرف معدن الرجال يقابلهم وجهاً لوجه وهم هائجون متعطشون للمواجهة، هذه هي حتمية المتشرِّد.

الجديد المحتوم، حتمية كـــــــان لابد منها لتحرك الأشباح، فالخيانة حالة شاذَّة تعيق التقدُّم، ولابد من بترها: صوت من العدم، وفي نبرة تحمل نغمة الغضب، سمعه سي مروان وكان متسائلاً مع نفسه مستغرباً، فتحاور مع نفسه دون الإفصاح بما في داخلها، ولم يُسمِعه حيرته خوفاً من

الوضع، ومرعوباً من وجوه أقدمت على تدنيس زخرفة رُفعت بشهامة الرجال وشجاعتهم.

– هذا ليس صوته، فمن يكون يا ترى ؟!

تذكّر عناوين الصحف باختلاف مواقفها، وحينها نظر في وجه الزعيم فوجده لا يتحكم في انفعاله، غرابة التصرف وتغيير في الملامح، غضبه شديد؛ جعل سي مروان يهمس في غياب الجواب وانعدامه:

– فهل فعلها حقاً رغم صحته...؟ أولم يكتف من سبع دون الظهور؟ فتذكَّر أنه استبعد عن الساحة، وأيقن أنهم كانوا يعلمون بعدم رضـــــاه بمهزلة تمسُّ الشرف، ولكن...

كيف ؟؟ يعتبرها البعض خطوة لمواصلة الإنجاز؟ وأنا أراها نكسة جديدة؟

حدَّق في وجهه الذي ارتعدت له الأوصال، وجمد الدم في العروق للهيب عينيه، طويل القامة، تهابه السحاب، واقفاً يتصفح الجريدة وسي مروان يحاول استجماع قواه، فأراد أن يهمس بصوت عال، وتمنى أن يسأله دون خوف وفزع، لكنَّه عجز حتى عن الإشـــــارة لِمَا في ذهنه من حتميات تسمع، فتساءل مع نفسه قائلاً:

– ما الذي حدث اليوم...؟ تمكن من غضبه واليوم أراه ينفلت من مخبئه، لِمَ كل هذا الغضب والتوتر، وقد تعود على هذه المواقف المتكرّرة...؟

أخذ الزعيم سيجارة من فوق المكتب، ثم أشعلها وبدأ يدخنها بشراهة، فلم يسمح لخيط من الدخان أن يفلت منـــه دون تذوقه، وهنا تذكّر سي مروان طيف الرَّجل الذي مضى برفقة المحنّط، مومياء في معبد الفراعنة، وكأن الزمن ينسج نفسه ثانية وثالثة وإلى ما لا نهاية، وشيطانه يهمس خلسة في أذنه اليسرى:

– لن تغيب شمس أرضك في ليلة الطاغوت أبداً...

فأنت تعلم أنـــه يحنَّط لغاية الاستمرارية دون نسل يخلفه، ولا يريد الانصراف لمحض إرادته...

دنَّس الزخرفة وقلب الزعيم تمزَّق أشلاء، والمتعنِّت يكتب على فترات متقطعة، وفي وضح النهار أنذل فقراته، فأغلق على نفسه باب الحوار، فكرهه الجميع منذ أيامه الأولى.

في تلك الأثـناء، سمع سي مروان نبرة حملت نغمة المحنَّط، نعتته بخلو النقاش وانعدام التعاطي في جدل ألحَّ عليه الجميع، فحكم عليه بالقلق المزمن خوفاً من كشف أوراقه الملعونة وطموحاته الزائفة، متمنياً القبض على الدنيا

بقبضة قابضة، لكن مهما كتب بحروفه المدنَّسة على أوراق السمراء، وفي خلوته بحاشية المنافع لن ينفعه اليوم.

عمَّ صمت لثوان وبعدها قهقه، ثم أكمل حديثه قائلاً:

– لقد ثارت المطالب وثأرت، فلن ينفعه تحالف الذئاب.

تناول الزعيم الظرف من فوق المكتب، ثم فتحه وأخرج منه ملفاً وبدأ يقرأ من ورقة قديمة أخرجها بعناية من داخله:

– أنتم أيُّها السائرون على الخطى...

إذا حدث لي أي شيء قبِّلوا وطني وكونوا حريصين على وضعه بين أيدي أبنائي، أريد أن تتوحَّدَ أجزائي، وتستمر حتى لا يدمِّرها الطوفان؛ فأرجوا منكم أن تهتموا ببناتي وأبنائي وكل أوراقي.

عمَّ الصمت لثوان...

تمتم سي مروان بعدما بدا له كأنَّــه سمع وصيِّة محكمة الكتابة، لكنّه تساءل عمن كتبها: أي بنات وأي أبناء يقصدهم؟ وأي أوراق يريد أن يُعتنى بها...؟ ثـــم عمَّ الصمت للمرّة الثالثة، فكسره الزعيم بحديثه قائلاً:

– لا تفزع !! فهذه وصيّة الشهيد.. لا بد أن نصون الأمانة ونحفظ الوديعة.

سمع الصوت، وتكرَّرت تلك النبرة للمرّة الثالثة بينما كان سي مروان يهمُّ بالخروج، فتناثرت أوراق عقله هذياً، كتبها بخط مفهوم مسابقاً للزمن:

– لا تنس أنهم سبعة وأنت قائدهم!! أخبرهم أن الوقت ينفذ، فلابد من تحرككم في أقرب وقت دون تأخير، والحمد لله أنَّها اليوم حية ترزق بين أياد أمينة.

كانت التاسعة ليلاً من يـوم فبراير حين خرج سي مروان من قصر، سمع فيه كلاماً ترك في صدره نشوة لا توصف، فكان يهمس ويكرِّر حديثه بصوت خافت، خوفاً من أن يسمعه أحد وينعته بالجنون:

– ممكن أنّني مجنون، ولم أنتبـــــه لخطورة جنوني، فأنا أحمل أغلى أمانة على وجه العجلة.. إنه حيّ يرزق..!

تذكّر كلام المعلم حين طلب منه ألا يندهش من كلمات تأتي دائما ألغازاً يفكِّكها الرجال، ويعجز أشباهـــهم عن فهمها، كون عقولهم لا تغادر بيوت الحكمة، وعندما خرج لم يجد ذلك الحارس في مكانه ما جعله يقصد سيارته، يركبها ليغادر.. فجأة ظهر له واقفاً يدقُّ على نافذة السيارة، ففتحها سي مروان وابتسم قائلاً:

– لا تقلق.. فلن يصيبك شيء مما جرى.

ابتسم الحارس في وجهه قائلاً:

– لو تنتظرني...؟ مناوبتي تنتهي بعد ساعة.. سنرتشف القهوة معاً.

شكر الأعمى على مرآة قدمت له بخساً للفضائل، والبصر كفاية الحاجة...!! حقلاً يزرع بالمحبة، ويحصد بالشكر، واضعاً الحكمة على مائدة الوعي وموقد الفراسة يأتي إليه كل جائع يسعى وراءه مستدفئاً بالعزم والعزَّة، فهزّ سي مروان رأسه شاكراً له:

– لماذا تريدني أن أحتسي معك القهوة...؟ ومنذ قليل فقط كنت تهدِّدني بالموت إن دخلت؟

طأطأ الحارس رأسه ثم بدأ بالتملق، غير متشبع بقيم تقيه من مسِّ الخنوع لذاته، خاضعاً يبتلع الكبرياء قبل الإهانة قائلاً:

– لأني لم أكن كريماً كما أكرمتني، وهذا رداً على معروفك كونك لم تشتك مني.

دوّن سي مروان رقم هاتفه على ورقة، ثم وضعها في جيب سترته معروفاً قبل أن يغادر ويغلق باب سيارته، لكي ينطلق بسرعة تحت جنح ظلام عانق القمر في روضة الفكر.

حاول مرارا أن يجد لقاحاً يشفي عقله من سقـــــمه المتعب، فسبح في دنيا تراءت لعيونه قصة، قرأ فيها صفحات شجون العزيمة، بين مـــاض أودع ذكراه في خياله لن تغيب، وآمـــــلاً صُوِّر له في غدٍ مع حورية السمراء حجة، وهمسات البشر تريد الإفلات من المستبد القاهر.

تلاشى المشهد تدريجياً من خياله، تاركاً للنجوم فضاء يقود تحت بريقها سيارته بسرعة نحو مكتب الشبح الأول.

سي مروان رغم كبر سنه كان يعاني من حب المزاح، يتقدَّمه بطنه الكبير، وجهه أسمر ممتلئ تعلوه ابتسامة تغطيها ملامح الأرق وكثرة التفكير، شعره أبيض فارغ ناعم، يحب ملامسة شاربه الكبير بلونه الرمادي، غزته بقعة من الأصفر الدّاكن بصمة لشراهة التدخين.

فاهد كان مكلفاً بحماية الأرشيف، الأول من السبعة الذين لابد أن يخبرهم بأن الوقت ينفذ، ولم يكن بينهما أي موعد سابق.
دخل مكتبه على غفلة، فوجد فاهد يتلذَّذ بقطرات الشاي كمصاص دماء بدم بارد وبشرتـه الشاحبة، فتخيله بأنياب طويلة كـ (ليليث) يقبض على الفنجان كما يقبض على رقبة شخص تلذّذه دماً أحمر، فمازحه عند دخوله قائلاً:

– أراك تحلب في بقرة اليتيم خلسةً.

ضحك سي مروان بينـــــما فاهد فزع من دخوله على حين غرّة، وغضب من كلامه الجارح، فلم يعلم أنه سيزوره الليلة، لكنه نظر إليه وابتسم ابتسامته المغلقة قائلاً:

– لست كما تصفني...!! لست أحلب في بقرة اليتيم خلسة وقد سبقني الأولون، فلم يبق منها سوى الاسم كناية...

فما الذي أتى بك في هذا الوقت...؟

– جئت أخبرك بنفاذ الوقت، كنت عند الزعيم.

– كنت عنده اليوم؟!

– نعم وقد غادرت منذ ساعة تقريباً، وقد طلب مني أن أخبركم أن الوقت ينفذ!! لقد قرأ الرسالة التي أوصلتها له في الظرف.

ابتسم فاهد قائلاً:

– تلك الأمانة...!!

أمانة لا بد ألا تدنِّسها أيدي الخونة.

استوقفه قائلاً:

– لكن.. ما حيرني أمر تلك الأوراق، والأبناء والبنات المذكورين في الرسالة!!

سحب فاهـــــــد علبة قديمة من خشب البلوط المشقّق، فتحها وبدأ يخرج الأوراق من داخلها قائلاً:

– هذه هي الأوراق...!!

لم يخطئ، فعلاً هي رسالة الشهيد، يعلم جيدا أن هذه الأوراق محفوظة رفقته طوال الليالي القاتمة وتحت ضوء نجوم حزينة كانت له مؤنسةً.

استوقفه سي مروان مرة أخرى:

– لكن، نريد معرفة ماذا يكتب...؟

– كما تراها.. إنها أوراق مبعثرة كتبها بخط غير واضح وفي عجلة، ودوّن كل ما لديه من أفكار وأسرار.

وقف فاهد في سكون باحثاً عمن يلقي عليه اللوم، ولكنه في النهاية لم يجد سوى نفسه بالقرب من تلك الطاولة التي وضع عليها علبة خشب البلوط المشقّق، ويقلِّب في أوراق أخرجها من العلبة محاولاً ترتيبها.. عندما بدأ يقرأ علم أنَّه على أبواب الشهادة.

وهب حياته فديةً في سبيل أبنائه وبناته، ونفسه راغبة في كتابة وتدوين كل حادثة بصدق، ووسط زحمة الأيام، مضت دون رجوع في ظل رغبته في إنجاب طفلة بجمالها، وتمنَّى أن

يراها تكبر في عزَّة أمـــه الغالية وعلى عجلة مفاجئة لابد منها، لشهوة لم يتمكن من الهروب منها أبدا.

لا تتعجبوا...! هذا سباق مع الزمن!! فلم يترك ثانية واحدة دون طلي جوانبها بأحاسيسه خشية أن تخطفـه الموت حاملاً لِمَا يخصكم، فالموت يرتاح حين يخطفه وتدفن معه كل الأسرار:

– اليوم أراه قادماً.

استعدَّ للمواجهة بكل ما استطاع جمعه من أوراق، فتمنَّى ألا يفسدها الزمن، وتقرأها العقول فكان يخاطبه في كل لحظة قائلاً:

– هل أنت جاهز...؟

– لا !! ليس بعد.

تهرّب منه لكنه لم ينسه أبدا.. واليوم، أمنية البقاء وحيداً والعيش حراً خارج حظيرة الأوهام ليست سهلة المنال، حلمه في انتظار شمس الحـياة تبخّر، وتبختر الأمل مع مجيئه صدفة، لكنه ترجاه أن يمهله دقائق، وللمرَّة الأخيرة جمع كل أوراقـــه واحتضنها، ثم قبّل كنز حياته ووضعه في علبة من خشب البلوط المشقّق قائلاً:

– على بركة الله...!! أسدل ستار قصة هذه الحياة المعزولة.

هذه هي المرَّة الثانية التي يواجه فيها الشهادة، وحقيقةً لم يفكِّر في الموت لأنه ميت يروي يومياته، حيّ بذكريات جميلة ورثها لغاية الكتابة والإنجاب، رغم أنه عند نقطة الحسم واقف يحدّق في صمت يخيم، والخوف ناشر ظلاله على أعقاب آثار الأقدام، والقلوب التهبت ناراً أخلطت في نفسه وقفات الذكريات، بألوان لوحات حلم يقترب أكثر فأكثر من لحظات يوقدها مطلب التحرُّر الشرعي هامساً:

– معالم الذكريات والأحلام تظهر ويزداد الاحتراق والتوهج اللاإرادي. فمن قال إن الموت شيء اعتيادي ؟! حتى ولو قلنا إن الموت في سبيل الحرية شهادة، تبقى نهاية لا يمكن أن توصف بدقّة الرواية، أشد المواقف رعباً...

فإن لم يأتك على غفلة، سيكون.. فهـــــذا الخيار لابد منه، وكل الحتميات تدفعني إلى الشهادة، والتضحية لأكتب وأنجب، وهذه حقيقة حتمية.

توقف فاهد عن القراءة، ثم أخرج سيجارة فأشعلها آخذاً منها نفسا عميقاً، تجمّد على إثره الحزن الذي قرأه من تلك الأوراق، متلذِّذاً بدخان عانق السقف محتضناً هيام

السكون، وفي تلك الأثناء نظر سي مروان في ساعته، فعادت به ذاكرته إلى منتصف الشهر، يـــــوم التقى بها وجها لوجه، مؤلّفةً لموسيقى زيجة الهوى ببغضه، زيجة خلَّفت متعجرفة لوّثت سمعة كبير قومها، فأغلقت في وجهه سبل الاستمرارية، مشوّهة الحقيقة في وجه الكذب !!

– سوف أسلمها، ولو على جثتي أمانة.

– ماذا...؟ ماذا تريد أن تسلم؟ سأله فاهد في عجب.

– لا شيء...!! أنا أهذي فقط.

مرَّ الوقت بسرعة، وقت مضى في الماضي وسوف يمضي في المستقبل، ويجب استغلاله بكل مفيد لأنه لن يعود، والكل في انتظار نهاية الزمن المرّ، وفجأةً تحدَّث فاهد غاضباً:

– يريدون أن نكون بعيراً، يحمـلوننا أوزارهم ولا نتذمر، لكن حتى البعير يثأر ويصك عند الضرر يا صديقي.

في تلك الأثناء دخل عليهما أحدهم: كان شيخاً مسناً حمل على ظهره رزمة هموم، ناداه فاهد باسم "صقر"، تاه القــــلم في وصفه، فأهدته السنون لمسات على مُحيّاه، تاركةً أخاديد وحفر رسمت طريقاً على وجنتيه وتحت عينيه، تروي قصة كفاح صارم، وقف متململًا يستند إلى الطاولة بجسده البالي، وثيابه الرثاء لم يعد يتذكّر متى ابتاعـــــها لستر

جسده، حاول جاهدًا أن يقف مستقيماً بظهر تركت عليه الهموم لمستها، معتاداً النسيان لعيش اليوم بأمل الغد الأفضل.

ظهرت على فروة رأسه شعيرات بيـــضاء من بقايا شعرٍ تفرَّق، ولم يعد يحمي جلدته من أشعة شمس حارقة، كماً تفرَّقت أسنانه في فمه، ولم يبق فيه إلا مـــا يعينه على المضغ، وشفتاه كواد شقَّ أرضه الجفاف.

تلك الملامـــــــح ولدت في قلب سي مروان شفقة السؤال، همس بينه وبين نفسه حائراً محتاراً:

– من يكون...؟

دنا صقر من فاهد قائلاً:

– لا تزال كعادتك تهمس لكل ورقة ولا تتذمر...!!

ابتسم فاهد وسي مروان في حيرةٍ:

– أهلا بك صقر.. اليوم جئتنا في وقتك كالعادة.

رفع صقر يده ماسحاً الغبار الذي دخل عينيه، فتجلَّى في لوحة جميلة تجسَّدت تحت ضوء مصباح متدلٍّ من سقف المكتب، بينما فاهد يقدِّم له كرسياً ويجلسه بجانبه، ثم يسكب له فنجان شاي ساخن ويضعه بين يديه قائلا:

– أنا أسقيك حرارة، وأنت أسقينا رواية الربوة المنسية...!! عن يوميات عشق التحرّر.

ابتسم صقر قائلا:

– وقف الحظ بين حياة وشهادة، فإن أتت الضربة مباشرة سقـــــط شهيدا، وإلا أكيد ستأتي عشوائية غدارة، وسيكون شهيدا؛ فالموت بالرصاص أرحم من الموت يائساً في ساحة التحرُّر، فمن هذا الذي هرب من الموت؟

المروج أنبتت أزهاراً من الدماء الطاهرة، استنشق عبقها مسك تضحية جليلة لا توصف، فتموَّه الجميع في انتظار عودتهم لذا اندهش سي مروان مما سمعه على لسان نسيم الصباح، حمل في باطن سماه ألف أمنية بلون النقاء، وبعد عتمة الليل بث أنفاسه لتنفث في الرّوح أملاً بأنَّ القادم أجمل، أشخاص تمنَّى سي مروان ألا يحزنوا أبداً؛ لأنّ الابـتسامة تليق بهم كثيراً، ولكن استشهدوا ونحن ننتظر عودتهم!!

وضع صقر يده على قلبه متحسِّساً ورقـــة طواها منذ زمن، أيام ربوة التّحرر، وقبل أن تلده الحتمية من جديد على عتبة فبراير، فأخرجها يقرأها مبحراً في الأفق البعيد، المدى الذي تهدَّم في طريقه الأمل المحيط لأرخبيل حديقة الأماني والتّحرر، ثم سكت قليلا، وبعد برهة تذكر يوم مرّوا وسط

القرية وإذ بولد صغير يهرول مسرعاً معترضاً درب القائد مبتسماً، طالباً منه أن يخبر أباه أنه في انتظار مجيئه:

– أخبره أن يعود.. فأنا لا أريده أن يبتعد عني...

أريده بجواري.

ضمّه القائد بقوة لصدره، ولم يشعر بدموعه تنهمر على وجنتيه، آخذًا نفساً عميقاً ثم ابتسم في وجهه قائلاً:

– نعم سأخبره...

والآن هيا بنا: دلني على بيتكم.

أوصلهـــــــــم الصبّي إلى بيتهم، وإذا بجدته جالسةً أمام الباب، ينادي عليها بصوت عالٍ ومتيقناً بعودة أبيه، شهيداً سقى التِّلال بدمائه الزكية، فأصبح نجمةً في السماء تنير درب أيامه القادمة حريةً:

– جدتي!! هذا صديق أبي سيخبره أني أشتاق إليه.. سيطلب منه العودة لأني لا أريده أن يغيب أكثر من هذا الوقت.

شعرت جدته برعشة ولم تقوَ على الوقـــــوف على رجليها، كانت جالسةً والدموع تنهمر من عينين أذبلهما حزن الأيام، ولفرحة رؤية رفيق ابنها يحمل في آثار خطاه روح البسالة ومسك التضحية، تمتمت قائلةً:

– رحلت يا فلذة كبدي، تركتني أتـــألم وأحتسي لوعة فراقك، وقهر الزمن لابنك الوحيد.

– استشهدوا ونحن ننتظر عودتهم...!! لهذا أقول لكم حرب الأمس نفسها حرب اليوم، فالحروب على أمثالنا تقع.

سكت صقر ماسحاً دمعة سالت على وجنتيه، وسي مروان ينظر في وجهه لحقيقة أنجبتها الدنيا جمالاً، تكبر وتكبر جنباً لجنب قوةٍ غامضةٍ أرادت تفسير الخبايا، محاولة إثارة الانفعال في نفسه متوسِّلةً، وسي مروان مفتعلاً النشوة والارتياح، يتمتم قائلاً:

– نعم إنها اليوم تكبر.

مرَّ شريط الذكريات أمام عينيه، فتلاشت صور الأيام بسرعة يسألها وهي غائبة، باحثاً عن جواب مقنع يروى قناعته الظمأى:

– كيف تبني نفسها بنفسها...؟ كيف رتَّبت الأيام حركاتها ورسمت الساعات جمالها على هذا المنوال...؟

صرخ صقر في وجهه قائلاً:

– اصمت، فأنت لم ترتِّب أيامها، قرارك الوحيد الذي اختاره ظلك واضحٌ... !! أن تكون هنا وفقط.

– أتمنى وأرغب، فلا تنس أنيِّ أحلم.

– كن واقعياً ولا تخلط الأمور!! فأنت لست موجوداً لكي تحلم وتتمنى.

سكت برهةً...

– يحلق الموت فوق رأسك في كل لحظة، فماذا تفعل من غير أن تعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، ولآخرتك كأنك تموت غدا؟

– أرغب في العيش قرونا من السعادة.

قهقه مستهزئا في لوعة الانتصار:

– لكن...!! حين يحلّق الموت فوق رأسك...

ماذا ستفعل؟

الإرادة الجامحة للتحقُّق من ردَّة فعلـه بعيدا عن حلمه بالحياة، وبعيدا عن الكتابة، وإنجاب الفرح الذي طالما حلُم بجماله، وتمنى إنجاب طفلة يسميها الغاية في خياله، ورواية يوسمها بالشهادة في واقعه، فحسمت المواجهة بينه وبين الموت...!؟ فالموت يملك سطوة وجبروتاً وهو لا يملك شيئا غير الحلم، كتبه على الورق بحب حياة عاشها للحظات. فهل تكفيه لحظة واحدة ليلخّص كل قدراته...؟ وليجمع كل هذه الأوراق ويسابق الأيام، فيراها تولد في خياله الشاسع

وذاكـــــــرته المهدّمة، وأصابعه-لم تتعود على تصفح الأوراق-ارتعشت عندما رتَّب الجمل التي خطَّها بالعزيمة.

استنشق سي مروان رائحتها الزكية المعبّقة بالياســـمين القدسي، ريح طيبة فاحت من عبارات زخرفت فقرات حياته، عاش لأجلها فبقي لأيـــــــام يحلم ويتمنى أن تكبر، وتداعب أوراق التمنِّي، ودائماً يدعو ويتضرّع لله:

– يا الله...

تكبر وتطبع أحلامي فوق عتبة سكون الوقت.

تمنَّى وحلم بفرح منتظراً قدومها، فقرَّر ألا يبقى في مكان واحد وهذه الحتمية رافقها القدر...!! وجاء الوقت للمغادرة واستبدّ به الفضول، لذلك تذكر الرسالة فاندهش قائلاً:

– لا أملك الحجَّة للتفكير، لعل كل هذا من هاجس فضول نثره بداخلي الظلُّ...

من وقع نبرة صوته أصابه الاضطراب وزرع السؤال على طول الطريق، قاصداً مكتب فاهد، فزاغت عيناه ولم ينتبه عندما دنا منه طالباً إيصال الأمانة إلى أصحابها، فألقى نظرة داخل علبة خشب البلوط المشقّق، محدّقاً في أوراق بقيت بداخلها، فاستبدت الرغبة بداخله لأن يكمل القراءة، وانتابه هــــــوس كشف أسرار الفقرات، لكنه خشي من نفاذ الوقت حقاً، فقال له مبتسماً:

– أوصل الأمانة فلا يجب أن تتأخر أكثر.

ظل السؤال يحفر في نفس سي مروان وألحَّ دون جواب:

– هل تورطت في غير المشروع...؟! أم أنها حقيقة رسالة شهيد أحملها أمانة لأشباح الظلِّ المتحرِّرين...؟

خرج سي مروان وركب السيارة، يقود بسرعة في سكون ليل أشعره بالراحة، مستمتعاً بنسـيم همس بمواويل شعر، مادحاً السكون الأسود القاتم عبر النافذة، أخفى الألوان في لون واحد، وجد فيه الحنين حديثاً؛ فتدافعت إليه الأرواح وتموَّجت فيه الأنفاس، فأبحر عقله بعيداً، هناك وجد حورية السمراء بجانبه على ظهر سحابة عشق التحرُّر، تغازله بابتسامة ثغرها، والعشق يسقـط ورداً فوق مقود سيارته، يحاورها في حيرةٍ:

– أنتِ هنا وأنا ابحث عنكِ...!

– اليوم يوم من أيام عجاف، لا يثمر فيه جهد العناء.

استهواه النظر تمعناً في قطرات الندى، واقعةً على خدود حورية السمراء يائسةً، وعلى رصيف قارعة الذكرى تتأمَّل متوعدة الحنين خجولة، وجمالها ينحني أمامه القمر لضيائها يشِّع شعاعاً محتكراً دروب الصفاء والنقاء الأسمر:

– نعم سيدتي... !! أكثري النظر والانتظار على قارعة هذا اللقاء.

بعثر الزمن خيال سي مروان على شرفة التأمل، والأبيات المظلّلة لبيوت المعاني حروفاً يراقبها مـــــن على شرفة الحاضر، استوقفته في غفلة الاستياء:

– تعاتبني... تلومني...

عسى أن يداوي العتاب الجراح القديمة!

راقب مرور ذكريات عدَّتها الأيام، تبكي وتقطف زهور العمر من كرامة الإشراق:

– شوقك يلمع ذهبا على ربـــــوة الحور تلده الدموع، اليوم لن يثمر جهد العناء، فأرجو أن يأتي ويخرجني من ظلمات اليأس والخطر. لكن...

تجري الرياح بما لا تشتهي سفني.

ذئاب متعطِّشة للجسد راقبت حورية السمراء، والفارس الحامي نائم في رسومات تركها سي مروان مبعثرة على عتبة باب غرفته، وفوق طاولة يقابلها كرسي ورثه عن والده، هجرها كما هجرها سي مروان منذ زمن، ماشياً بخطى متسارعة وراء عطر الشقراء الغاوية، وحورية السمراء تلومه وتصرخ قائلةً:

– هل أعماك القرف ولم ترها تنهشني...؟ أولم تسمع عواء الْقَوْمِ رغبة في التملك...؟ الذباب الأزرق ينتظر للنهش والنباح...

لا تنس أن الوقت يمر والليل على الأبواب.

همَّ تائهاً في أفكاره ولم يفارقه وجه صقر، الذي دخل عليهما في غفلة متململًا بجسـده البالي، ورأسه اشتعل شيباً، يداري باب فمه المفتوح، الذي غادرته الأسنان، وشفتاه تشققت أرضهما من الجفاف.

وجدهم في الحديقة...

تلك الجنة اختفى سحرهـا النهاري في غياهب الظلام الدامس، تملـؤها الأشجار المنتصبة في كل مكان كجذوع للشـياطين، تراقبه في صمت وهو يخطو بحذر نحو ثلاثة أشباح، كانوا جالسين، يحتسون الشاي تحت ضوء النجوم التي تلألأت في السماء، والقمر بدر أضاء الحديقة بنوره الخافت.

ملامحهم غليظة ورؤوسهم اشتعلت بشيب برَّاق، سطع من شدَّة بياضه تحت ضوء المصابيح التي أنارت الحديقة في عزِّ ليلة السمراء.

تنحنح قائلاً:

– أخبركم أن الوقت قد حان للتحرُّك، ولا مجال للتأخير فالوقت من ذهب إن لم ندركه ذهب، فلن نهدر وقتنا بما لا ينفع القيم والحرية، لابد أن نستغلَّه لكسر شوكة خيانة تريد تدنيس كرامة الأمانة.

سكت الجميع...

لم يتفوه أحدهم بكلمة واحدة، فاستمرت الحياة في غمرة الموت والحقيقة ابتسمت في حضور الكذب، فرأى الأشعث يلوِّح بيده من بعيد وهو يقترب في عجلـــــة: كهل أصيب بتشعث شعره، شدا بهيبة الأسد الآمر، والناهي في مجموعة أشباح استوطنت الحديقة.

صرخ الأشعث ثائراً:

– من سمح لك بدخول الحديقة...؟ من أنت..؟

سألقن الكلب الذي تركته عند المدخل درساً في الطاعة لن ينساه، لأنه كلب مهمل!!

تريث سي مروان حتى وصل الأشعث ثم قال له:

– لا تتهور يـــــا أشعث، فأنا أتيت بــأمر من الزعيم، يخـــــبركم بضرورة التحرك وكسر شوكة الخيانة، فاليوم التحمت جهود الذئاب، ظفرت مقاصد الضِّباع للنيل ونهش جسد الغزال.. ولَدَتْ عقولهم حماراً من بيضة النعام.

تلعثم لسانه قائلاً:

– الزعيم...؟! إذن أنت رسول من عنده !؟ سنتــحرك في الغد، الجمعة تجمعنا على كلمة الحق.

أوصل سي مروان الأمانة ثم خرج من نفس المدخل الذي دخل منه، وتعجَّب لأنّه لم يرَ أشباحاً في حياته، يحتسون الشاي في جلسة رومانسية تحت ضوء القمر، لكن اليوم رآهم: كرماء لا تعنيهم الغاية.

خرج من الحديقة وركب سيارته ثم أخرج هاتفه النقال في عتمة الليل والسواد، جلس يتصفح صفحات على جدران الفضاء الأزرق، يقرأ ويبتسم:

– نحن على منهج فلان ونحن على منهج فلانة...؟

اختلطت المناهج...!! والحكومة حضَّرت لتجمعٍ ضخمٍ للإعلان عن ترشحه، والمتحرِّرون عانـــــــوا القمع بالمطاطي، والدخان المسيل للدموع.

تذكَّر سي مروان الأوراق التي لم تنته قراءتها، فأغلق الهاتف وقاد سيارته مسرعاً، لعله يجد فاهـد لا يزال في مكتبه، كانا يستيقظان دوماً عندما ينام الجميع كخفافيش الليل، بينهم فرق ضئيل: خفافيش عشقت مصّ الدماء وهم عشقوا قراءة الأوراق في جوف الليالي.

عندمـــــــا وصل وجده جالساً يداعب هاتفه، وصقر قد غادر، فدخل عليه مسرعاً، كهاربٍ من وحش قبور سمع عنه الكثير في روايات البطولة، طيلة الأيام التي استوطنت النيّة جوف القلوب، فأقبض على ردّه، وسي مروان يفتح الباب دون دقدقةٍ، ثم طأطأ رأسه قائلاً:

– أنت ثانيةً...؟ ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟ ألم تكن لك غاية تقضى، أم أنك خائف من الظلام...؟

– أوصلت الأمانة وتركت الكلب يدفع الثمن...!! والآن هيَّا لنكمل قراءة الأوراق.. لكن أين الصقر !؟

– الصقر خرج للصيد، فلا تسأل عنه كثيراً، لأنه لا يملك مكانًا خاصاً، يصطاد في كل مكان.. أي كلبٍ تتحدث عنه...؟

– كلب حراسة ربطوه يحرس مدخل الحديقة.

ابتسم فاهد حتى ظهرت أسنانه الصفراء، ابتسامة شاحبة حملت المودة الصادقة بعيداً عـــــــن رائحة النفاق البغيض، سحب علبة خشب البلوط المشقّق وأخرج أوراقاً عزلها وراح يقرأ:

– عرفت منذ الصّبا أن الشجاعة تقودني إلى النجوم صعوداً، والخوف يقودني إلى الموت المحتوم.

تسامرا تلك الليلة، وسي مروان مسافر على أعتاب الذكريات لزمن كان برفقة جده دائِرين حول حفرة ملؤها الجمر المتوهِّج، داعبه جده بعصا كساها السواد، كاسراً شوكة خوفه، ولم يترك عدوه يجبره على التراجع، خاف منه لأنه كسر التردد، وكان يعلم أنه إن خاف من صعود الجبل عاش الدّهر كله بين الحفـر.

حدّق جدّه في وجهه وسط عتمة الليل، وبين خيوط نور تصاعدت من جمرٍ عشقه لحد الهيام، جعله يحفظ الوعي اللازم مصمِّماً على هزيمة الخوف، والابتعاد عن فاقدي الشجاعة والاعتذار.

نصحه جده بالحكمة قائلاً:

– لا تفقد احـترام نفسك التي تربت على يـد الشجاعة، ولا تنتظر أن تكافأ عليها..

متْ بشرف ورجولتك تخلق من اليأس أملاً، رغم مرارة طعم الموت، لابد أن تتماسك، فالعواصف تجعل جذور الأشجار متماسكةً.

بلغ صيت نظر سي مروان عنان السماء، محدِّقاً فيها تبتعد وتجول الأحراش قرب جبلٍ حاول بالأمس بلوغ قمَّته، فكاد يدفـــــن في وأده الضيق، وعلى شماله تلٌّ كساه بساط الزهور، اختفت وراءه حدود المطالب الشرعية.

تمتم قائلاً:

– حتى الذين نضرب بشجاعتهم المثل، لن ينكروا طرق الخوف باب قلوبهم.

تربى سي مروان على الشجاعة: مدرسة الصبر والكفاح مفتاح التقدم، ما جعله يهجر الباحثين عن مصائب الغباء، في مواجهة النسل المجهول، وبربـــــاطة جأشٍ في موضع دفاعي، وهجوم تلزمه قوة اكتسبها ثقافةً مع مرور الأيام لمواجهة خوف نزوة الشيطان.

قوياً احـــــترمه الجميع، وأحبوا ثقافته وعزيمته في النضال، فأقسم ألا يكون ضعيفاً، وألا يسقط ملقياً بجوانبه على مهد الراحة، وأن لا ينغمس أبداً في النعيم وأهله تحت رداء القهر، والاضطهاد.
تذكر تلك الأيام السوداء، يوم أمسك بأصبع صديقه على بساط الشهادة، يحثُّه على النطق بها قبل خروج الروح عائدةً نحو خالقها سبيلاً، لكن حديثه يغذى أوصاله ويحفزه على التقدم.

خاطبه بكلمات حفرت في ذاته أنحوتة الأسى، فابتسم رغم الحزن وتمتم بكلمات متقاطعةً:

– لا تتحدَّ شخصاً لا يملك شيئاً يخسره..

وأنا لا أملك شيئاً..

– الأولى هي الأصعب يا صديقي، سنخط معاً الطريق نحو برِّ الأمان.

في تلك الأثناء، سمع سي مروان همساً، وللوهلة الأولى خاله صوت قاطن الوادي، فلم يفكِّر في الأمر بجدِّية، متجها صوب منبع الصوت منجذباً بالنغم الساحر.

سمعه بوضوح:

"يا بني! لا تنس، لنا وطن...

أشرق شمعه يومًا فاحترقْ"[1]

شده النغم العذب والأداء الجميل، وحرقة المنشد دفعته للاقتراب والاستكانة بهدوء في جواره، وفي تلك الأثناء همس قلبه الحائر معتكفاً في محراب الجسد، فأحسَّ بالقوة محدِّقاً في الدمع المتحجر في مقلتي الفتى منتظرا بحرقة قدومه حائراً..

من يخبره مقنعاً بصدق الخبر، وأمانة الشهيد ثقيلة، ودموع الفتى حارَّة حرارة الفقدان؟

بنى نفسه جاعلاً منها رجلاً، ومنذ كتب حروف اسمه على جدار معبد ظلِّها القائم، أقسم بشهامة أبطالٍ بنوا مواقف البطولة والإنسانية، واليوم كرَّر القسم علناً:

---

[1] من قصيدة للمؤلف.

– أقسم في حضورك فلن أحكم على المرء بجبن يومه، لأني أعرفه بالأمس قائدًا للشجاعة.

ولد في زمن الخوف شجاعاً، وضعته أمه وهناً على وهن لتحمُّل نتائج حياته، ومنذ الصغر حفِظ على يد شيخه المواعظ:

– الله يشرح صدر الشجاع بشجاعته وإقدامه، وأنبل الصفات هي الشـــــجاعة؛ فلا تكن جباناً وأنت صاحب البيت، فاللِّص الجريء، سيحاول أن يسرق بيتك ويغير على خيمتك.

لم يهمه الفشل لأنه تعلم العيش أسداً، محدقاً في الجبناء كطيور نعامٍ يفرُّون من الخطر، بينما الخطر كان يفرُّ من وجهه كلما حدَّق فيه، فقال وهو يداعب فقرات أيامه:

– أقسم بألا أتذوق الموت إلا مرّةً واحدةً لأنها حتمية.. أقتل بتلك أو بغيرها!! فلابد أن أسعى لدحر الخوف.

ابتسم في وجهه قائلاً:

– كن أسداً منتــــصباً كالتمثال، حتى وإن تعدَّدت الأسباب، فالموت واحد.

تصاعد عمود الدخان من سيجارة سي مروان يعانق غيوم المحن، يعبّئ أنفاسه جاعلاً منها سفينة أبحرت على أمواج

المدى المفتوح، والأفق يمتد فيه ببروز النتوء والتلألُّل التي جهرت بألوان التمني والحلم بفرحة الجمال:

– هذا هو القدر...

يخبرونني بأنها رسالة الشهيد.

– نحن نتصـــــــــفح أوراقاً تحمل الشهامة وهناً على وهن، وبعزيمة متوارثة لرجال وقفوا على العهد ولن يتغيروا رغم المحن. قال فاهد.

– شجاعتهم همة ولن تكون أبداً سلعة تباع على عتبات أبواب دور الحكم. فالكثيرون من أشباه الرجال يترددون عليها ذهاباً وإياباً.

احترقت طفولة صقر مستأنساً بهم، واليوم هو معتكفٌ على وشك الزوال، ولم ينفتح بعد برعمه الفتيُّ، يصرخ في هستيريةٍ:

– سأجرُّهم إلى نقطـــــــــة الفناء، وسأسعى لرؤية سرِّ ذاتي، فأرجوك أن تحدثني عنهم.

شبح ظلِّ السمراء له مبدأ صارم، موهته النغمة والأداء بقلب كساه الحزن مغلقاً على روحه بالفجعة، حدق سي مروان في وجهه مكتـشفاً الغبار الملتصق بلحيةٍ بلَّلتها الدموع، وملابسه اليابسة على جسمه للزوجة العرق، وتراكم

غبار السنين غطى شعره بأتربة الحنين لكلماتٍ ردَّدها بحزن شارد:

– يا بني! لا تنس، لنا وطن...

وجود سي مروان في الرواية مرغماً للتّحرر، ولم يقض فيها سوى مسافة أوراق كتبت تمتعهم بما تبقى من رغبة الاستقلالية، والتّحرر من لعبة شطرنج تنهي دائماً بموت الملك، فابتسم صقر بحزن ثم قام منصرفاً دون وداع، وبرغبةٍ جامحةٍ أراد بها لقاءهم بمظهره، لكي يُنظر إليه كعائدٍ من زمن الجراح: زمن الشيطان (كابا) في شكل سلحفاة أو ضفدع، استوطن الأنهار والبحيرات لالتهام الأطفال الصغار الأشقياء، متسائلاً يومها ولا يزال السؤال يتابعه:

– لِمَ هذه الحتمية...؟

عالم يسكنه الموت المحتوم، وأينما ذهب يحاصره، أحب الحياة وأتعس كيانه حين تخيل الموت دون منفعة، والشهادة تحوم على روحه وهي تسعى لإنجاب ثمرة الاستمرار:

– أتيت بمحض إرادتي.

مختبئا وراء ظهر حورية السمراء لشعوره بالأمان، وفي حضور صورتها شهد سعادته تكبر، وبشقاوة تشاغبه فرح التي تمناها طفلةً مرتديةً تاج الملكة، واحتمى خلف حورية

السمراء أينما ذهب حافراً اسمها في قلبــــــه، ومنع الأخريات من الاقتراب منه، فجنى النحل من رحيقها واحتضنت الأرض جذورها، فلم تُظلَم عليه ليلة واحدة دون شعوره بطيفها.. ظلُّها يرافق النسمة برائحة العطر.

همس لها مراراً:

– صدقيني...! لا شيء يجعلني هادئاً سواكِ، وحياتي تزداد مرارةً والموت في سبيل الحرية ثناء.

عاش على شــــــوق البلوغ والتـمتع، ويداه في جيب سترته، يخرج الصورة القديمة التي لا تكاد تكون واضحةً، ينظر فيها ثم يقبل وجهها المشقَّق بحرقةٍ، وكان صقر ينظر ويبتسم:

– صورتها تجعلني أقوى على الحياة..

يا لها من معركةٍ كبيرةٍ! مصاعب الحياة لا تكمن في عجزي عن تحقيق ما أريد، بل في عجزي عن دفع ما لا أريد.

بدأت خيوط الضوء تتسلَّل عبر باب المكتب المغلق، ضوء شمس يوم جمعة أشرقت مضيئةً، صباح يملؤه الأمل، كاسرةً ظلام اليأس والإحباط.

صرخ سي مروان، فنظر فاهد إليه في عجب:

– سأتذوَّق اليوم فرح حياتي التي توهجت دفئاً.

أشرقت السمراء مفترشةً في قلب السـماء شمساً تدلي بجدائلها الذهبية، كخيوط أملٍ أنبتت في غايته وهج ثائر يغمز لأحلامه بطرفه، ناقشاً بحروفٍ تلألأ نورها هنا وهناك ثائرةً.

ثار الشباب هاتفين، مطالبين بالحرية، حينها طلَّت ببهائها الجذَّاب لتغريد طيور الشارع، أيقظوا الورود من سباتها رافعين لافتات عبَّرت عن رفضهم القاطع للاستبداد، منتشرين لقضاء اليوم كلِّه هتفاً بالحريّة.

يوم جمعة ولد الهيام بين المتّحرِّر وحورية السمراء، فأمتع بصره ببهاء فراشاتٍ ثائراتٍ، وزقزقة عصافير بريئة، نشيداً للتّحرُّر وطموحاً لكسر القيود والأغلال.

هتف سي مروان فخراً بهم:

– أنتم أحلامنا، نفتخر بكم.

للعصافير حرية، وطيف حورية السمراء يراقبه، يقترب منه ظلُّها بحرارة المطالب، والوقت هيَّأ نفسه لبداية الظلام، حلكة ليلٍ أفرد ضفيرته وحرك حواس سمعه في انتظار المغامرة، لم تكن تلك التلاَّل وحدها تحتضن الصخور كأنها جذوع أشجارٍ ميتةٍ، تشقَّقت بفعل تعاقب الفصول والتحمت بها وجهاً لوجه في معركة الحياة القاسية.

رسم القلق الابتسامة على وجه حورية السمراء، فلم تخفه ملامحها المخبأة تحت ظلِّ حاجبيها السوداوين، وفي طريق أفسدت القلوب وقتلت القيم، بحثاً عن حقٍ غائبٍ لم تعد تراه إلا في صورٍ قديمةٍ معلَّقة على جدرانها، فصرخت من عمق يأسها لوماً للزمن، وتأوهت مـــــن كثرة تحملِّها لكرب الأيام، وعجزها عن مواصلة التحدِّي، فتمنت الموت وعاتبته قائلةً:

– آه منك يا زمن...

أثقلت جسدي بهموم الحياة، فالموت أهون عليَّ من البحث عن إبر الحظ وسط الركام.

جلس سي مروان في شرفة بيتها، يراقبها من بعيد تجوب الشارع وتتمتم:

– نحن في قاع محيطٍ جافٍ نسبح، والفاســـد تسلح بشوكه، ونحن تسلحنا بكلـــــماتٍ من حبر السمِّ الأسود، نردِّدها مراراً على مسامع أشباه الوطنيين.

شمس منتصف النهار ساطعة، أغرقت سي مروان في قيلولة والسمراء توقظه، ثم تنصرف كعادتها في مشهد رائع لبداية رواية أشباح ظلُّها في مهمة الوعي، وتلك القهوة المنسكبة فوق أوراق الحقيقة المرَّة حيرةً، حين جلس على كرسي ورثه عن والده في صفحات كتاب الأيام خطت بالحبر الأسود، فقرّر

أن يكتب سرداً على مسمع القلم الحزين، حين تلاعب بها غرور الزمن، وبرفقة القدر لم يبقيا من ذكرى حورية السمراء سوى وشمٍ، على صوَّر أيامٍ مضت والأمل يجره لذكراها، وسي مروان يتبعه تتبع الظلِّ لتوعـــية الضائع بين جملٍ تهدِمُ الأمَمَ، وككل مرة يحدِّث ظلَّها قائلاً:

– لن أيأس ولن أسأل أحدا، فقط أقوم بالتوعية اللازمة للخروج من نفق الأزمة، وبلوغ لذة التحرُّر الذي قادني ليومي هذا.

شـاهد حورية الســمراء واقفةً على عتبــة باب الغرفة متنهدةً، تفكر في ذكرياتٍ مضت ولم يبق منها سوى قصاصة ورقٍ كتبها المدنِّس بلغة الوحش المفترس، مكشوفةً، يقرأها الزمن لغرور الأمل، مُوهماً بغدٍ مبهمٍ، راسخاً في ذهن سي مروا، حافراً في ذاته كهفاً للمفاجأة.

نظر إليها مستغرباً فخاطبها قائلاً:

– لا أعلم إن كنت أحبك لأنك سمراءُ، أم لأنك توحين بالقدر الغريب، لكن لا غريب إلا الغريب عن القدر السائر في طريق المجهول، الفاتن الغاوي بأنيابٍ مكشرَةٍ تكشير الذئاب الجائعة المفترسة.

لحظات غريبة مألـــــوفة.. استعدَّ للرجوع إلى زمن القمَّة، فقرَّر العودة للحلم، ولم ينوِ مغادرته، متهرباً من

كابوس أرعبه كلما استيقظ منه وعقارب الساعة تسير عكس مسار وقته، وخلف رفاقه الذيـن تسلَّقوا لرؤية معركة الحسم، سار بخطى متباعدةٍ قاطعاً نصف المسافة نحو القمَّة في هذيٍ وتمتمةٍ:

– خانتني الجرأة على التقدم.

انبطـــح يستجمع أنفاسه، فاستيقظ مستلقياً فوق بلاط غرفته، يضحك على نفسه مستهزئاً:

– حتى السرير يرفضني يا الله، لكني..

أتمسك بالعزيمة والإصرار ولن أفقد القدرة والطموح أكرِّرها علناً دون تفكير، فتتحقق غايتي بالصدفة، لأني أعرف ما أريد وأتحدى الصعاب بالغوص في أعماقي لاستخراج قوة تمكنني من السير قدماً.

قرَّر العودة للحلم ثانيةً، فنظر أسفل القمَّة مرعوباً لشدة الانحدار الذي تغلَّب عليه، فغطَّ في نومه العميق ومضى عليه الوقت متشبثاً بشوكٍ، يهذي في حلمه:

– يفتقدونني ويرسلون من ينقذني.

صادف في حلمه كاهـــــناً، شجَّعه للصعود نحو القمَّة، وأرشده إلى طريق العودة، فوضع يده على كتفه ومشيا خطوة بخطوة نحو الانفراج، متشبثين بصخورٍ

صادفتهما، وبشوكٍ قبضا عليه دون إحساسهما بالألم لغاية البلوغ، فتنفسا الصعداء، وصرخ سي مروان مستيقظاً من حلمٍ دام اليوم بأكمله، وكُتب له عمرٌ جديدٌ، ولن يُصاب بالبلل لأنه بعيد عن قطرات ماء تحفر عمق الصخرة، ولم يردْ شيئاً بقدر رغبته في التحرُّر، كونه غارقاً في قيود الحلم والحرية تفكيراً فعالاً في المواقف العصيبة، فصان وجهه بالإحسان من ماء المذلَّة.

طلب سي مروان عفوهـــا من خطيئةٍ اقترفت فوق سرير الرذيلة، لكنها امتنعت رافضةً العفو عن بائسٍ فاجرٍ، تركها على قارعة اليوم بين أقدام الشيطان، تبكي أياماً العجاف وتعاتب في حسرة:

– لماذا يا هذا..؟

الموت أهون عليَّ من العيش بلقمة النجاسة.

توسَّلت والدموع منهمرةٌ على خدَّيها سيولاً، وبين يديها ابنها الرضيع الذي جعله السعي خليفة المطلب، لم تتغلب على جوعه وأما جوعها فقد نهش جمالها الأسمر مقطراً من خديها نحافةً حتى أضحت كجمرةٍ سوداء، لكن لم يكن سي مروان السبب، فلن يشار له بأصبع الاتهام.

صرخت قائلةً:

– لا أمل لي ولا مفر.. أرهقني اليأس والسؤال، فهل كنت تعلم أنني أموت شيئاً فشيئاً..؟

صبيحة يوم الجمعة، جمـــــوع خرجت قاصدةً ساحة التحرُّر، فأوقفوهـــــم في حاجز مفاجئ، وطلبوا منهم وثائق الهوية، كانوا فيما لا يزيد عـن عشرة، حاملين فوق أكتافهم دم الأمانة، والمؤتمن الذي هلَّل سلاماً أبيض ممزوجاً بالأخضر لون المروج.
اقتادوهم إلى شاحنة مغلقة، وكان سي مروان ناصحاً للبقية الذين كانوا معه قائلاً:

– اسمعوني جيدا، ممكن أن تسلب منا الحرية، ولكن لابد ان نبقى أحراراً على الدوام.

ثار الدم في عروق سي مروان ونسمة البحر تلامس وجهه محاولةً إيقاف أنفاسه الثائرة، والأفكار تدور في رأسه عكس عقارب ساعة الزمن، أجلسته ناكرةً يصرخ في وجهها قائلاً:

– لن أكون جزءاً من خطةٍ دنيئةٍ تمحو تراث الشهادة والجهاد.

هواء تشبَّع برائحة دم شخب حملته الأنفاس الحارَّةُ، دون متسع من الوقت لكي يجفَّ، وبداخل شاحنة مغلقة توسل إليه أحد الشبان قائلاً:

– أروِ لنا بطولة جميلة، تلك التي تذكرها مراراً وأنت تهذي بالتّحرر.

تطاير شرٌّ عصام دافِعاً بباب الشّاحنة بقوَّةٍ، مصطدمةً برأس سي مروان، ضربة رأى على إثرها النُّجوم في وضح النَّهار، وخوف كشَّر بأنيابه، جالساً على قلوب الشَّباب في عنفٍ وصراخٍ:

– تخرس وإلاَّ أخرس البطولة في فمك..

شيخ هرم، أنت متشردٌ وتتباهى بالبطولة، أنت لا تصلح أن تكون شيئاً غير مجنونٍ يروي ما لا يملك فيه عزَّةً.

ابتسامة لاحت على وجوههم احتقاراً ولم يعتبر سي مروان كلام عصام تهديداً في حقِّه، وكان يبتسم رغم الألم قائلاً:

– إنَّه صغير عن معرفة البطولة.

ثمَّ بدأ يروي قصَّة جميلة الشُّجاعة:

– يا بنَّي! جميلة شجاعة..

ترعرعت في أســـــرة أنجبت نجوماً، وجميلة أصغرهم سنًّا، دلَّلها أبوها حتَّى أصبحت شبحاً أرعب العدوَّ، وحسب لها ألف حساب.. في إحدى الكمائن، وصلت الأوامر لمباغتة العدو قرب القرية وتحت جنح الظَّلام، انتظروا لمدَّة دون ظهوره في الوقت المقرَّر، وصباحاً عندما أشرقت الشَّمس،

سمعوا أصوات شاحناتٍ محملةٍ بالجنود.. هجموا عليهم واشتبكوا معهم.

– انتحروا والله، تحت تغريد صوت الرشّاش من وراء صخرة ثمَّ رأيتهم يسقطون أرضاً.

سمعوا صراخها:

– لمَ هذا يا رفاق؟

لِمَ تريدون الانتحار؟

توقَّف الزَّمن برهـــــــةً ودقَّات قلب سي مروان متسارعةً، ابتسم لرؤية الأعـداء أرضاً يسبحون في برك دمائهم، فجاءت اللّحظة غدَّارةً وراء صخرةٍ تخضَّبت بدمائها الحارة الثَّائرة.

تنحنح قائلاً:

– لكن يا أبنائي..

خمدت ثورتها صحيح، ولم تخمد ثورتنا نحن.

توقَّف الوقت ومعه دقَّات قلب سي مروان، كأنَّها ساعة توقفت لسكونها، وزوال غطرسة شجاعة تتوارى صخرة تلطَّخت بدمائها الطَّاهرة:

– إنهَّا ثورتنا من أجل التّحرر..

فلابد ألا نيأس، فالحرية لا تعطى فوق طبقٍ من فضَّةٍ، وإنَّما تؤخذ بالعزم والعزيمة.

ذئاب في هيئة بشر جياع تنعدم الرَّحمة في قلوبهم.. فتحت أحضان حورية السمراء دون وعيها للتَّفاهة، التي كانت تحوم قرب مأتمها في صراع ضدَّ رذيلة قابعة فوق أوراق نجاسة الأيَّام، ودون كلل أو ملل.. عبيد زمن الجاهليَّة.

نظرت حورية السمراء في نوبة التمني متسوِّلةً، واقفةً على باب منزلها تقترب في حذر منها قائلةً:

– أريد ان أتحرَّر من جهل البشر...؟

– أليس لكِ ثائر يحرِّركِ من قيود العبوديَّة؟ وهل لا تملكين من يمدُّ لكِ يد العون للتَّغلُّب على غرورهم وتملُّقهم؟

– غادر منذ زمن؟ وفي زحمة الأحزان ولدتني الأماني والأحلام، هاربةً من نافذة برج المآسي والتَّدنيس حافية الأقدام، فأين حقِّي المهضوم؟ هل من باب للخروج من وحل الأسى؟

بعد كل سلمية كان سي مروان يقصد تلَّ العفريت، هناك اكتشف سرَّ شقائق النُّعمان واحمرارها الذي غزا المروج، شاهدها وهي تنتصب بعنفوانها البرِّيُّ البريء، فجعله فضوله يلمس أوراقها، ويهمس لها غايةً:

– أنا أعرف سرَّك...

جذورك تتغذَّى بدماء الأبرار، الدِّماء التي طالما تناثرت في كل مكان.

نشوة عابرة، ألم لهيب شمس أوقدت شرارتها، ورائحة الحذاء النَّتنة تسرَّبت إلى أنف سي مروان، وجوربه كالجلد المسلوخ، تصلَّب وتعفَّن من ذكريات سبحت في سبع سماوات، عائدة به إلى أيام ترك فيها حورية السمراء على ربوة العفريت، فهمَّ باحثا عن كاهن رآه بقرب الوادي منبطحا تحت ظلِّ المبَاركة، محتضناً السَّلام، وسي مروان يلطُم وجهه ببرودة مياه نبع الحياة، ويشمُّ رائحة الحريّة في لحظة عاشها بلذَّة فرعون:

– سمعت أصواتاً...

كأنها هلوسة زمن..!!

تعرفهم حورية السمراء، وسي مروان عرف روادها، ورائحة الحورية التي واجهته يوم لقائه بها، صبيحة يوم طل القمر بجماله وطاب لهما السَّمر، فخرجوا يغردون في أزقَّة ردَّدت هتافاتهم صرخات من العدم، وبخطوات ثابتة شعر بتحرُّر قدميه من قيود خامسة، وتلك الفرحة ردِّدت بصوت عال حريةً، فكانت تبتسم قائلةً:

– أنا مبتهجة، فما أجمل ليلة اليوم بوجودكم، وظلّي لمتحكمٌ لعلمه وجهة سفينتنا! لست أفكر في الصَّفح عنكم كونكم دفنتموني، ولا الانتقام منكم لأنَّكم نسيتم وجودي، فالنِّسيان هو الصَّفح والانتقام في ليلة هادئة ثائرة.

سذاجة ليلة مظلمة، ظهرت فيها السماء فوق صفحات المرآة العملاقة، عاكسة صفاء القلوب، لمعت أملا بـــــين نجوم مبعثرة، شقَّت أفاقاً جديدة، وحورية السَّمراء هامسة من فوق شرفة منزلها قائلةً:

– سأترك نافذتي مشرعة...

سيتسلَّل منها قمري الجميل، لكي ينام في أحضاني.

صمت لثوان، فهتافاتٌ بالحرية والعدالة ردَّدها الجميع:

– أسجنوني، فأنا السَّجينة الحرَّة ولن أرضى بالذُّلِّ، أنا سليلة الشَّهيد ثنائي له والتَّبجيل، أسجنوني وإن شـــئتم لا تسجنوني، أنا الحرَّة ولن أسجن حتى وإن كبَّلتــم يديَّ بالأغلال، فمهما سجنتم منَّا لن تسكت الحناجر.. النِّضال لا يموت.

السمراء تحمل الأمل في تحرَّر لن تجده مرمياً في سلَّة مهملات الخطيئة، متشردا، مهمَّة شاقة مشقة

دقدقـــــــــتها على الأبواب، والسؤال، وفي كل مرّة أظهرت صورته قائلة:

– هل جاءكم أحد بهذه المواصفات...؟!

ينظر الحاجب في الصورة:

– لا أبدا.. لم أره في الأرجاء.

بابتسامة شاكرة تكمل طريق بحثـــــها المتعب، وهكذا أيامها، تكرَّرت فيها الأحداث بداية ظهور بريق النور على قوائم التّلال، وحتى غروب الأمل وحلكة السَّواد القاتم.

جرَّ الشّوق الأشعث على أمواج الخطيئة، فدخل قبو الرّذيلة يدا بيد السيئة المتعجرفة، كان يفتخر بفعله الدَّنيء ويتباهى بما صنعه زمن البؤس، وعند باب الاستسلام ركب فوق جمرة مشتعلة ... فتأوه ثمَّ صرخ:

– يا عفَّة أيّامي لِمَ تنتحرين ...؟ لِمَ يضحك عليَّ القدر ويمتحن الرَّغبة التي ولدت في جوف قلبي الأُسود ...؟ لماذا يتراجع عني الاطمئنان ...؟

دخل اليأس على سي مروان في صورة زوجتـه قوس الشَّرق خلسة، بينما كان ممـدّدا على سرير لذَّة التّحرر ينتظر التّجدُّد بشغف، فأُغلق الأبواب، وأذاقه من عذاب جهنَّم حتَّى غاب

عن الوعي، ولم ينتبه لكونه وحشا، أخذ مكانها في غفلة العقل وسهوِ العزيمة، وعندما استعاد وعيه صرخ سائلاً:

– أين ذهبت حوريّة السمراء ...؟ أين قوس الشَّرق؟

لِمَ أنت هنا ...؟

سألتك كم مرَّة أستفسر: عن سبب حزنك، عن دمـوعك وغبنك، وعن الأبيات المكتوبة على لوح الباب يقرأهـا العابر سبيلا، فكانت الإجابة صارمة:

– من كان السبب في سواد الأيام، فأنا لا أعلم من المتسبِّب في الأمر، العمر أم الأحزان ...؟

فجأة غاب الوحش بدخول قوس الشرق، وقفت تنظر في زوجها سي مروان صامتة، تتوسَّد ظلَّها وتترجَّاه آملة في غد أفضل، فأخذه الشَّوق والفضول، جارًّا إيّاه لسماع حكاية قوس الشَّرق، ورذاذ القهوة المنسيَّة، منسكبة فـــوق تلال الحرية، والقمر لم يملك مبرِّرا لحزنه، وجانبه المظلم رأفة للشَّمس السَّاطعة، ساندتها النجوم كمصابيح أنارت الطريق في ليالي الشَّوق الطويل.

عزفت حورية السمراء على أوتار الفرحة بالتّحرُّر، وتحت تأثير مخدر الخوف ثائرةً، صرخت من على شرفتها قائلةً:

- جوبوا الأزقَّة بسلام، لن تسجن حريّة العشق مظلمة...اهتفوا ولا تستسلموا فشرفتي مفتوحة وبعشق للحرية تناديكم.

أكمل سي مروان الطريق، لقاؤهما كان لحظة نادرة لن تتكرَّر مهما حاول بلوغها ثانية، ولد على عتبة يوم الثاني والعشرين فبراير بحثاً عن صدر حنون، يحتضن التّحرر ومشقَّة طريقه، فمدَّت حورية السمراء يدها، وهم قبّلوا الأيام في حماس ولهفة، فهمسوا لها رغبة إعلامها بحقيقة الحــكاية، والصراحة أخلاق، فظلُّها ملك خيط توجيه السفينة، وشجاعة مواجهة الآخرين امتناعا عن المجاملة في غير الحقِّ، فعجز لسان الرّاوي عن سرد الصراحة.

في البداية تمنّى سي مروان بلوغ علم اليقين، لسرد رواية زواج الهوى على ركح الانتظار، لكنَّه غادر قبل نثره لرذاذ الهيام والانجذاب لطراوة أصابع السمراء النَّاعمة، التي حاول تقبيلها وهي صدَّته بأطراف رموش عينيها صارخةً:

- كفى يا هذا ...! لقد أصبحت طوع شهوتك.

تملَّصت حورية السمراء بابتسامة ساحرة، قائدة إيَّاه نحو غرفة مظلمة، فأمطرت سماء صحرائها شهوته الظمأى، مداعباً أنوثة حياة ضمَّها كأنّه يعرفها قائلاً:

- أنت عشقي الأبدي...

صراحة، أنت حبات لؤلؤٍ تزيِّن الذكريات.

دخل سي مروان الغرفة المظلمة، وارتمى بجسده فوق السّرير النَّاعم متأملاً الجدران الملساء، تحسَّسها بيده أملا أن تكتسب رحاها النُّعومة التي فقدتها عندما تشبَّث بشوك جارح في صراع تحرير غايته المسجونة. خلع ملابسه التي فاح منها مسك الموت، حام عليه وهو يدلك جسده المغطَّى بالعرق والغبار، فشعر برؤوس الشَّوك استوطنت أطرافه ورغوة الصّابون دغدغته رافعة العلم الأبيض، حدَّق فيه مرفرفاً في وجه نشوةٍ خطَّها مندهشاً:

– أتمنَّى دوامك لألف سنة، ولا أريد المبالغة في صراحتي حتَّى لا أسقط في وحل الوقاحة.

– إذن لا تبالغ في مجاملتي فتسقط في جُبِّ النِّفاق.

رنَّ جرس الباب دون انقطاع والطَّارق على عجلة من أمره، أيقظ سي مروان فاتحاً عينيه بصعوبة، فأنار المصباح وهو يضرب بيديه كفاً بكفٍّ قائلاً:

– من يزورني في هذا الوقت يا ترى ...!؟

وقف بصعوبة وصفَّف شعره الأشقر، ثُمَّ خرج من غرفة نومه بسرعة نحو باب الرِّواق، وعندما نظر من فتحة الباب اندهش وتمتم بينه وبين نفسه قائلاً:

– انه الأشعث !!

لماذا يطرق بابي في هذا الوقت ...؟

فتح سي مروان له الباب فدخل الأشعث مبتسماً، متلهفاً للكلام:

– لقد جاءنا المولود المنتظر...

تركت كلَّ شيءٍ وجئت أخبرك أنَّها ولدت لنا خليفة.

نظر سي مروان إليه متوترا:

– أنجبت ماذا ...؟ من ...؟

– كما قلت لك أنجبت لنا خليفة.

خرج سي مروان برفقته يبحثان عن ظلِّ الأشعث، التي عانقت سراب التّحرُّر، وسرعان ما تقبَّلا حقيقة أمر النَّشوة الغريبة، وشعرا بالرِّضا كونها وجدت لها خليلا، فخاطبه قائلاً:

– أنا تكفيني اللذّة التي منحتني إيّاها في غرفة مظلمة.

مصالحة ربطت الأخوة بقمر التّـــحرر، قطعوا حبالها منذ زمن، فغرست أشـــــجار الفرحة لتجثم عليها العصافير، مزقزقةً تحت وقع صوت الهتافـــات بعيد الوطن، أعلنت فيه الهدنة مع الحزن، وحاجة اللّيل لنجومه

هي نفسها حاجة التّحرر لشعراء الحبِّ، هتفوا بالحرية عشقاً، وحورية السمراء مراقِبة عبر نافذتها المشرعة، وشرفتها جُعلت هبةً، وعربونا للتّأييد، ومحبّة التّحرر.. صرخت بلهفة العشق قائلةً:

– عشقي بعدد النُّجوم، فلا تخافوا من حلكة اللّيل، طالما عشقي حرية تصرخ في وجه مستبد سجنني دون وجه حقٍّ.

زمن عشناه مرارةً في قبضة الشّياطين، لقرابة الدَّهر البائس تركوا بصماتهم على صفحات اللَّيل نُطفاً للتّحرُّر، فوُلدت النجوم مصابيح تنظر في عين الحرية، ولم ترَ غير ظلام اللَّيل المستبد قائلةً:

– يا نجوم اللَّيل أحمل قناديله، شوقي لكم من قلب الحراك يطالبكم بتحرُّرٍ منتظرٍ، لبريق نجمة (طاهر جاعوط) في الأفق.

تتبع سي مروان خطى الصّديقة المفضَّلة للأشعث، الشّقراء غزيرة الشَّعر كالشِّتاء بلون سنابل القمح، متوسطة القامة ذات الوجه المستدير، مبتسمة ابتسامة الطبيعة، وعينان زرقاوان كماء البحر ويعلوهما حاجب كبير، وانفها الصَّغير يزيِّن بشرتها البيضاء اللَّون النَّاصعة كالثَّلج، برّاقة تلمع

كالنُّجوم في الظّلام.. ألقت عليه التحية ثمَّ غادرته محدقاً لها بعنين ذابلتين متهدلتي الجفنين.

تعب من السَّعي بين الأزقَّة، فدخل حديقة تسحر العينين بجمالها الطَّبيعي، غطَّتها الأشـــجار، تظهر من بعيد بشكل جميل، والأرض خضراء ارتدت ثوبا من الزُّهور، فتمدَّد بالقرب منها يتدفَّأ بأشعَّة شمس مرسلة، متأملاً في شجرة احتضنت الجميع بحنانها كحضن أم مصون، كان على وشك أن يغطَّ في النَّوم على وقع حفيف أوراق شجر داعبها النَّسيم، وزقزقة عصافير حطَّت جاثمة فوق شجرة قريبة، فسأل نفسه مراراً وتكراراً:

– لِمَ للعصافير حرية تحيِّرني؟

عصفور تنقل بحرية بين الأشجار وزقزق بفرح، فخيِّل له أنَّه دخيل، جاء من معبد الحرية، فحسده كون الحواجز لا تستوقفه وتطالبه بهويته، فهتف التّحرر على لسان سي مروان قائلاً:

– يا ليتني عصفور! فأحلِّق في السَّماء وأعود إلى هناك.. لقد تركتها تعانق شقائق النَّعمان الحمراء.

هلوسة شيطان زيغت في الأذن، وسي مروان يفكِّر في السَّفر بعيدا عن نهج الرّدع والاستبداد، بعدما تلقَّى دعوة

أصدقاء تعرَّف عليهم منذ زمن، دعوه للزِّيارة والتّمتع بنسيم شواطئهم الهادئة.

(٢)

فكرة السفر...

بدأت دقَّات قلب سي مروان تتسارع والتهب الخوف في كيانه لأنّه كان يعلم أنَّ الوطنيـــــين مصيرهم القمع والردع، عندما وصل إلى البـوابة قدَّم جواز سفره ثم جلس ينتظر كما طلب منه، كان يتأمل في الصورة الكبيرة المعلَّقة على الجدار ويهمس بينه وبين نفسه متسائلا:

– هل أنا في الحلم ...؟

معالم الحقيقة تتناثر حولي على وقع زوبعة الزمن!

حكم عليه بالجلوس لدقائق عديدة، أحرق من سجائره الكثير في محاولةٍ لردع ومقاومة القلق، لكنّ الأرق سيطر عليه وتزايد مع كل لحظة تأخَّر فيها النِّداء على اسمه، وبعد طول الانتظار جاء أحدهم وطلب منه الدخول معه إلى غرفة خلفية.

دخل وألقى التحية ولا أحد ردَّ عليه، كان الضابط يحدِّق في الصورة الموجودة على جواز سفر سي مروان ثم رفع عينيه ونظر في وجهه سائلا:

– ما اسمك؟

– اسمي سي مروان.

– لِمَ تريد السفر ...؟

– لدي دعوة من صديق لم أره منذ زمن.

– أين تقيم ...؟

– تعاونية ساحة الثّورة.

سكت الضابط قليلا ثم ابتسم في وجه سي مروان قائلا:

– يؤسفني أن أخبرك بهذا، ولكن..

أنت ممنوع من السفر.

اسمك مدرج في قائمة المبحوث عنهم، ولأنّي أرى فيك الشّهامة والوعي، لن أعتقلك اليوم، إلا أنه.. لا بد أن تلتحق بقسم التّحقيق لدى الفرقة المتواجدة في تعاونية ساحة الثورة.. جواز سفرك سنرسله لهم، وهناك يمكنك استرجاعه بعد المثول.

أخذ الضابط المحـضر وقدَّمه لسي مروان الذي أمضى عليه، ثم قدَّم له الاستدعاء الذي سيمثل به أمـــــام فرقة البحث والتّحقيق، فشعر بفقدان بوصلته بينما كان متجهاً نحو سيارة أجرة مركـونة بالقرب من مدخل البوابة الحدودية، استأجرها للعودة إلى بيته.

تحدَّث باستياء وبكلمات مختلطة:

– يا الله! ألغيت رحلتي ومنعت من المغادرة.. وهل أنا مجرم سفّاح ...؟!

لكل أجل كتاب، وظلّنا إذا تكلَّـــم أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا عاهـــــــــد أوفى، فالليل والنهار عنده سواء، وأعماله دون رياء، وهمَّته في العلياء.

في الطريق على متن سيارة الأجرة التي استأجرها سي مروان عائداً إلى البيت، مرَّ بالتلال التي نبتت بين سلاسل الجبال العالية، فهتف الماضي القاطن بداخله طالبا منه أن يحثّ السائق على التوقُّف قائلاً:

– توقَّف قليلا هنا !! أريد أن أسترجع ذكرياتي.

اعتلت النّشوة رغبة سي مروان في الترجُّل ليضع يده على صخور رأى جميلة الشُّجاعة خلفها، تصرخ في وجهه ثائرة:

– لا أريدك أن تقترب مني..

فأنا لا أريد أن أغادر جنتي هذه لكي أجوب معك الفيافي والقفار.. لذلك أرجو منك الابتعاد عن جنتي وتركي بسلام.

سي مروان مستغربا:

– ألا تتذكَّرني؟ ألا تتذكَّر وجهي ؟!

مرَّت عليه زوبعة الألم، ورسمت الأيــــام عليه أنهار اليأس، رغب سي مروان رغبة جامحة قـــــادته نحو الأودية، جابها رفقة شعوره بالفرح لحرية ولدته للمرة الثّانية

على ضفَّتهم يصرخ، فأرهـــقته سنوات الفراق.. لسانها دموع، وصمتها حديث يجوب سماء نظرها:

– مستحيل أن أنساكم.. صحيح أنّي هجرتكم طوعا لأنّني أرى قلوبكم تهوى فراقي.

نعم أشتاق لكم، ولكن وضعت كرامتي فوق اشتياقي ألما لا ينتهي والجو بارد، وقلبي يأبى أن يدفئني.

تناثرت قطرات المطر على نافذة حورية السمراء، وبهدوء ورقّة تتفاءل، وتهمس في الأذان بصوت خافت:

– أحضنوني بحرارة مطالبكم، فبرودة شتائهم قارصة.

عصف بعقل سي مروان الأرق، وعصره السؤال في جواب فضولي لمعرفة جنس المولود الذي ولدته الثَّورة، خليفة التحرر والحرف يحاور ذاته ويسطّر البكم على الشِّفاه، لكنّه استرجع قواه وقرر المضي قدما في الكلام:

– رزقت ثورتنا بمولودة بيضاء كالقمر...

سميت بالسلمية يشيع نورها وسط ظلامهم الدّامس.

تنهَّد سي مروان واستسلم للصَّمت، في يوم ممطر على عتبة باب العام الجديد ولدت على السلمية، فرأينا وجوه الشّـــياطين عبوسة، فتراقصت الكلمات على أوتار الحزن.

دمعت العيون سيولا فجمع الدَّمع في البرك، والأصابع تشير للسلمية بالفناء، وقد أرادها الشعب استمرارية ولدتها الغاية وهناً على وهنٍ.. تلد الحقّ وتربي المطالب، لكنّ الجهل يكبر في عقل الجاهلين، فلا يفرقون بين الخير والشَّر المفترس.. ولدت لتتربع على عرش المطالب، تحت وقع نظراتهم: سهام توخز قلب الثّأر والثّائر.

نظرت الغربان بعين الشفقة في وجه السلمية، كانت منبوذة من أصحاب الأكـــتاف المليئة، وحوش تفترس بأنيابها، تنهش حقوق السلمية، وحقوقنا الصّامدة، وفي قبضتهم نفس حورية السمراء، يتحكَّمون ويتسلَّطون بنية القمع والضرب.
بقيت على جسد الثّائِرين أوشاما لن تمحوها الأيام، ولن تندمل على مرِّ الزمن، سلمية ولدتها الثَّورة خليفة لتوعية الأجيال.

عصف بعقل سـي مروان الأرق، وعصره الأمل في غد أفضل، كـــــــان يبحث عن جواب يشفي عقله من السؤال، ويعفيه من الخيال، وأخذ يتحاور الحرف في ذات جمله ويخطّ بقلمه الأزرق رسائل على جبهات الأوتار، لكي تعزف أنشودة للتحرر والأمل والأيام.

أتى الشِّتاء وهطلت الأمطار بغزارة، أربكت الشَّوارع بأوحال خلَّفها الفساد، وأشباح الظلِّ كانت تناضل لاقتلاع

جذوره، الكل يسرع للبحث عما يحميه من قطرات لفظها الكون أنفاس شعب ثائرٍ، حلمه استرجاع المسجون زوراً.

خرجت الشّمس من سرداب الظلام، تمسح بلطف على جبين الأرض ومن غير توهج، وحورية السمراء واقفة تتمتم في مغازلة الصَّحوة قائلةً:

– تدفئني برودة يأسكم، أطلُّ من شرفة الاستقلال وألتهب جمرا بقطرات شتاء التّحرُّر.

حمل الشّـــتاء سكونه التام فتأجَّجت براكين الشعب ثائرةً، وكان سي مروان يرى العالم يعيش في سبات حتمية القدر، ينظر في حورية السمراء عبر نافذته تجوب الشّارع الخالي من شياطين القوم، وتنادي مؤمنة بالتّحرُّر:

– استيقظ يا شعبي..

استيقظ لكي تجوب شوارع النِّضال، استيقظ لتطالب بحريتك بينما هم نيام على بساط الرفاهية.

سمعت السمراء هتافاتهم، صراخهم في ساحة الشَّهيد في سلمية نقية، فخمدت نار موقـــدها وقلبها قد غرق في أساه، كانت تصغي لضجَّة الإعصار، وقد بدأت من حر واحة النَّخيل، فجابت الساحـات عازفة على أوتار صفصاف الحقيقة، وهي تقول لهم:

– اهتفوا...

فالسفر إلى عالم المعرفة لا يحتاج إلى جواز سفر وتأشيرة بقدر ما يحتاج إلى حرية وشغف الانفتاح.

مشى سي مروان على قدر زمن عقارب ساعة، رسمها على التلَّة المجاورة لوادي الشـــجاعة، فلم يشعر بالزمن يقطعه كحدِّ السيف، ومنذ البدء أحسَّ بشيب، جعل رأسه أبيض كالملح العاقر يعاتبه الزمن، يصرخ في وجهه قائلاً:

– استشهدوا كلهم فأهدته الحياة مرَّها..

نعم حقيقة، أحتار لما تقرضني الحياة فتات الزمن؟ وأنا عائد محملا بذيول الحسرة.

رحلة انتهت قبل بدايتها، وعند باب بيته وجد حورية السمراء تنتظر بحضنها الدافئ غير مصدِّقة، فتعالت الزغاريد وتوالت العزائم بقدوم الأشباح وهو يخاطبهم افتخارا:

– يعلو شأني وأنا أسمع حديثكم، ولا أعلم من حرَّر ألسنتكم؟

قبل شهور لم تتحدَّثوا بهذه الأمور بصراحة وجرأة كما تتحدَّثون بها اليوم !!

غادر الجميع، وبقي سي مروان يعدُّ تكاليف العناء، فكان يبحث عن حروف يخـــطّ بها أوراق الحياة بجانب حورية

السمراء، يكتبها أبياتا ويجمعها فقرات، على بيـــاض قرطاس الفرح، وتحرُّرٍ يراقبه عبر نافذة العمر متسلقا حواجز النِّسيان.

تقهقه حورية السمراء قائلة:

– أمتعتني والآن جاء دورك للاستمتاع ... فتهيأ ...

اندفع سي مروان بكل ما أوتي من قوَّة، ليتحسس عقد أصابع حورية السمراء، ويشتم رائحة خصلات شعرها يفوح منها عبق المسك القـــــــدسي، فخشي أن يقضي عليهما اللِّقاء، والدَّمع يفيض حارا من عيني حورية السمراء، تمسحه بحنان.

همس لها في شغف:

– أخشى عجزي والشَّغف يضع يديه على أهدابي يفرض علي النَّـــــــوم.. ولن يضع أبدا يديه على أحلامي، ولكن..

أحلام الثّائر لا تنام.

تمتمت له حورية السمراء مبتسمة:

– لا تنس أنّ الحياة تصفو لغافل عما مضى فيطمع.. وإذا أردت أن تصمد فلا تأخذها على وصفها مأساة.

ابتسم سي مروان معقّبا:

– لابد أن نكون كالسنبلة الفارغة ترفع رأسها في حقل سفاهتهم.. وليس كتلك الممتلئة تخفِّضه طوعا، فلا يتواضع إلا الكبير ولا يتكبر إلا الحقير.

حلَّق سي مروان بالغا السماء السابعة، وفي حضن الأيام كانت حورية السمراء جالسة، لحظة فرح يقبِّلها بعدد النُّجوم ليتبكم الكلام، فقضى اللَّيالي يخاطبها وينظر في صورتها، متمنيا أن تكتسي اللَّحم جمالا، لكنّه انفجر غيظاً لحظِّه العاثر:

– تمرنت طوال اللّيالي المظلمة، والآن عجزت عن الكلام فأوكلتها لحضني وشفاهي.

تمرَّد التّحرر فصرخ في وجه سي مروان قائلا:

– ماذا ستقدِّم لها ...؟ عجزت فلا تصلح زوجا، قد منحتك السعادة وتحملت عنك، ما يمكنك فعله اليوم؟

آهٍ منك !! جئت للذاتك وأحلامك فقط، تجازيها بتلك الأوراق المبعثرة أو تلك الأسئلة المتراكمة على رفوف أهوائك!!

لقد زارها مساء كما كل يوم، وأغلب الأوقات كانت تمشي على رصيف الحروف تنثر ذكراها رذاذ خوف الغائب، وأحيانا تقف أمام باب المسجد ترفع يديها بالدّعاء:

– يا الله! أعني.. فالمصائب تثقل كاهلي...

أعد إليّ الغائب المنتظر.

يراقبها سي مروان من بعيد، وهي تمسح دموعها بكم جلباب اليأس، ثم تنصرف للبحث عنه في أزقة المدينة الضائعة، وفي طريقها تجالس وسوسة الشَّيطان تحت ظلِّ البعيد، وعلى طاولة الحزن يحضر لها السؤال مسرعا، فتنظر إليه في لهفة قائلةً:

– أمهلني هنيهة سأكون مستقيمة...!

تعجَّب سي مروان من أقوالها، ومن الزمن الذي لم يمهلها إلا ما قالته في لهفة، عصرها الأرق ورسم على مسار أيامها مأساة.. كتبتها الأجيال حكاية، تزعم فيها الخصام بيوت العقل، فأصبح الحقّ لا يشبع جوع المتطلّب.

الحلم تولَّد وتفرع، فترجَّل الحرف من خوف الجمل، يخطُّ بدموع سوداء على حلاوة رقة حورية السمراء، وهي تتقلَّب على جبينها الأيمن ثم على الأيسر العسير، فدخل عليها في رؤية الشَّقاء شيطان اليأس أيقَّظها مزعجا، فاشمأزت نفسها من رائحة الحيرة وغدر الأيام.

مرَّت الأيام بسرعة، تردّد سي مروان في أول الأمر لكنّه قرر في الأخير الذَّهاب لزيارة مركز التّحقيق، فكانوا ينتظرون منه دخول تلك العمارة بخطى تعاتبه على قراره الساذج، وهفوة أيام مضت، قضاها في وادي الغربان يفـترش بقايا عشهم النَّتن، وروائح جيف بقيت من وجباتهم الفاخرة.

يرافقه أحدهم.. دخل سي مروان والشخص الذي رافقه إلى مكتب المحقِّق: كان شابا مهذبا في الخامســـة والعشرين من عمره، ذو وجه دائري غطَّى رأسه الشَّعر الأسود الأملس يظلِّل عينيه السوداوين، كان عندما يقف تظهر قامته المتوسطة، وابتسامته الواسعة.

ألقى سي مروان عليه التّحية فطلب منه الجلوس قائلا:

– اجلس.

جلس سي مروان محدّقا في شهادات معلَّقة على جدران مكتب المحقِّق، عرفانا لمجهود الفرقة في سبيل دحر الشَّر والأشرار، ولبرهة فقط طرق الباب ثم دخل عون آخر ليقدِّم كأساً من الشَّاي للسي مروان.

تعجَّب هامساً بينه وبين نفسه:

– عجباً !! هل أنا في لاهاي ؟!

عمَّ السكون لثوان ثم نظر المحقِّق إلى سي مروان مبتسماً:

– ما أحوالك؟ أتمنَّى أنّك بخير.

تعجب سي مروان وانهالت الأسئلة على نفسه صامتة:

– وهل جئت إلى هنا لكي يسألني عن أحوالي ...؟!

أجابه قائلاً:

– بخير والحمد للّه.

طال الحديث بين سـي مروان والمحقِّق، ولم يسمع منه شيئا، كان يتأمل في تلك اللَّوحات المعلَّقة على جدران المكتب تهربا من حديث المتحقِّق الغير مترابط:

– غباء كبير...!!

لم يستهزئ به كثيرا وبدأ يسأله:

– ما هذه المشاريع التي تروِّج لها أنت بالذات؟ تنوي إقامة دولة في الشّارع أم ماذا ...؟!

نظر سي مروان إليه مستغربا:

– نحن نسعى لفتح صفحة جديدة.

– كيف؟ لم أفهم قصدك؟

– نحتاج إلى تجديد وبناء كياننا المهدَّم، نحتاج لزرع الأمل في نفوس شعب أنهكته النَّكسات.

انقلبت إيجابية المحقِّق إلى سلبية، فلمع الشَّر في عينيه وقطر الأذى من حروفه، ولم ينتبه سي مروان إلاَّ وصفعة قوية من يد المحقّق انهالت عليه فأفقدته التَّوازن، وجعلته يسقط لاعقا بلاط المكتب النَّجس من أثر أقدامهم، فأخذ سي مروان يتمتم بكلمات متقطعةٍ:

– لماذا لم أحذر صفعته ...؟ كان يمكنني ردَّها، لكن ... لن يسامحني ولن يدعني أسامح نفسي.

سي مروان أكبر منه بثلاثين عاماً وتجرأ على صفعه.. دون خجل.
نهض واتَّكأ على المكتب وكان المحقِّق يصرخ:

– اصمت وانهض يا عديم الشَّرف!

نهض سي مروان ثُمَّ وقف بثبات لكن المحقِّق صفعه مرَّة أخرى، فسقط ليلعق البلاط مرة ثانية، وعلى هذه الحال كانت المرة الثَّالثة والرابعة، وفي كل مرة كان سي مروان يحسُّ بالدُّنيا تدور من حوله إلى أن تورَّم وجهه.

تألَّم في صمت...

أصرَّ المحقِّق على استنــطاقه محاولا بكل السبل المتاحة له، حاول مرارا لكنّه تغلّب عليه، وعندما يئس نادى على رجاله الذين دخلوا بسرعة البرق:

– تعالوا...

اخرجوه من هنا قبل أن أقتله...؟ اسحقوا عظامه حتى يعترف.

– أعترف بماذا ...؟ ماذا يريدني أن أخبره؟

هكذا تساءل بينه وبين نفسه في صمت.

تكوَّر سي مروان بينما الرجال انهالوا عليه بالضرب، ضربوه على قدميه فمرَّ بلحظات اختلط فيها الموت بالحياة، ونحتت القسوة في ذاكرته حفر دم تصدَّدت بين جلده وعظامه، فكان كلَّما استفاق سمعهم يصرخون:

– من قائدكم ...؟ لمن تعملون؟

يغيب عن الوعي ثانية، ويأمرهم المحقِّق بالتوقُّف عن الضرب، فكان الأمر على ذلك المنوال حتى أضحى سي مروان خرقة شحاذ، لم تقوَ على حمل جسده.

حملوه إلى الزنزانة: غرفة صغيرة مظلمة، وفي إحدى زواياها سرير، وخلف الباب دورة مياه مكشوفة يقابلها جدار عليه شباك صغير تحت السقف، بالكاد يسمح لأشعَّة الشَّمس بالدُّخول.

عاتبه وجاب برفقته أرض الجحيم، يهذي في غيبوبة:

– بؤسك يفتـح لنا سجونا لن تقفل أبدا بقلق سجَّانيها، زر سجني مرة يا كبير قومهم ستعرف فضل حرية تسلبها مني غفلة، نتألم وأنت السبب.. الحقُّ عند اللّه لا يضيع، لأنَّ خيالك ليس ناضجاً كفاية، والجدران الأربعة والجلاد لن يخيـــفنا أكثر ... فحريتنا ستصمد!

استعاد سي مروان أنفاسه ثم صرخ:

– تريدون حرماني من الوقت ...؟

تأملون في أن أعيش خارج الحياة ...؟ سأخرج والبداية حرية..

أطبقت الجدران على خيال سي مروان، وكان فكره يخاطب قاطني قبور الدُّنيا في حرية سلبت منه، وبقي يهمس:

– دخلته بنبل أخلاقي وسأخرج منه بعزة نفس ثائر...

فهذا سكون في عالم يتحرك أيها السجَّان، أجد فيه ذاكرتي خليلة فمن هذا الذي أخبركم ...؟ ومن قال لكم أن الحرية لا تملك وطنا...؟! سلبتها حقيقة من عمق عاصفة، لكنّ سماء وطني لا تزول. أنت عاجز عن الإحساس بها... كرامتي حرَّة في سجن وطني، وأنت حرٌّ في المنفى المحتوم ترضع الذل دهراً وحريتك بلا أخلاق.

كان يصرخ من الألم في وجه جدران قبر الحياة:

– لا أنتظر وساما من سجّان يفتقد مذاق الحرية، لكن الحمد للّه سأغطُّ في نوم عميق لأريح جسدي وأستيقظ بفكر جديد.

استيقظ سي مروان مساء يوم جمعة انقضى أجله، وكان لا يزال ضيفا عندهم بين جدران نحتت بجمل كتبها الأحرار الذين سبقوه إلى ذلك القبر الضيق، خيل لسي مروان أنّه سيقضي سنوات في مكان لن يجد فيه جليسا ولا وجهة نظر تقوده، فشعر بالخطر يحيط به والشَّك يذيب أفكاره، ولا أحد يرفق بحاله غـــــــير تلك الجمل المنحوتة على الجدران، ربطوه وأجبروه على قضاء اليوم واقفا على قدميه...تألَّم كثيرا. في الأخير صرخ سي مروان في وجه شيطانه الذي فرَّ من وضعه هارباً:

– عد إلى هنا أيها البائس..

فلا تفزع لأنّي أعتقد أنَّها مزحة فقط، ولن يدوم الوقت كثيرا وسأخرج من هذا الجحر العفن.

انتظر سي مروان مجيء المحقّق ليحرر المحضر اللَّعين، كان يراقب عقارب الساعة المنكسرة داخله، فعجز عن استيعاب الزمن من حوله، فتكرر الأذان وتعاقبت الثَّواني والدَّقائق والساعات، دون أن يحس بمرور الوقت، فاتّضح له استمرار

الأمر إلى غاية الموعد.. هجره الإحساس بالوقت في حضور الألم.

نظر سي مروان في ســــــاقيه المنتفختين، وتمنى أن يغمى عليه، ليستيقظ مع نهاية موسم العذاب، فكان يهمس لشيطانه عسى أن يستسلم له طوعا، يخبره لكي يطمئن، لكنه لا يريد أن يقترب منه ثانية:

– عد إلى هنا أيها الخائن فلن يحتملوا موتي! عد فالإخلاص لا يطلب وإنَّ في طلبه استجداء ومهانة، عد يا نذل فإخلاصك تحايل على شهوة الخيانة.

تمرَّد شيطان سي مروان ولم يستجب لمطلبه، فبدأ بربط الإرادة بالألم الذي تعود عليه جسمه محاورا عذابه ومتذمرا في وجهه:

– هذا هو عذابي الحقيقي، يريد لمستقبلي الانهيار.. فأنا في ورطة، ولابد أن أتحمل قليلا.

احتال سي مروان على الظرف المبني على المجهول، لأيام مرّت عليه بين جدران تروي رواية وجوه الذيـــن تلذَّذوا حقيقة العذاب، فجمع أنفاسه ووضعها تحت مؤخِّرته.

تكرَّر الوضع هاجساً.. كان يجلس على رزمة أوضاعه حتى طلوع الفجر، ويخاطب شيطانه الهارب ككل مرة غاضبا:

- أقترب مــن النِّهاية، أرى حياتي رواية في جملة حزينة، ولا أنوي الرحيل دون سبب، ولا العودة دون موعد.

أتوقَّع عدم تغير حظي.

في خلوته رأى سي مروان بريق وجوه رسمت بخطّ الحزن على الجدران، فكانت تهمس له وتمده بالقوة للاستمرار والكفاح لكبح القلق واليأس:

- قد تكون النِّهاية جميلة...

فلا تربط وهن بدايتك بعنف النِّهاية.. فليس هناك ما يجعل الحلم مستحيلا غير الخوف من الفشل، ويبقي مرًّا إذا لم تبتلعه في محاولة إرضاء الجميع..

أنت في الأخير فائز.

تذكَّر سي مروان حديث حورية السمراء، مواعظ تكررت على مسمعه كل صباح:

- استيقظ، الشَّمس تشرق والضباب ينقشع.

ذكرى ألهبت في قلب سي مروان الإصرار، وقلَّلت من أوجاع نفسه، غارسة رغبة التَّشبث بالحياة وحروفــها لإتمام مسار التّحرر، فنهض كميت يخرج مــن قبره، متمايلاً.. بالكاد

يبصر، ولم يجدها واقفة أمامه، وقد تعوَّد على رؤيتها شامخةً باسقةً كنخلة وسط الكثبان.

حورية السمراء كتبت فقرات العـــــزيمة على قرطاس الكـــــفاح، نضالها يعود عودة شمس غابت لغروب محتوم، فترسم الابتسامة على فقرات أيـــام الثَّائر سي مروان، بقلم ذرف دمعه على أيام مضت ولن تعود! عودتها تمحو وشم الأيام.

لقد فتح السجَّان باب الزنزانة بعدما تعود عليه سي مروان مغلقا، فدخل إليه الضوء القليل الذي أعمى عينيه، ولم يتمكن من فتحهما، لكنّه سمع ضحكات السجَّان الاستهزائية:

– خذ ثوبك الجديد، أرسلته زوجتك قوس الشَّرق، لأنَّها تعلم أنَّ مكوثك سيطول هنا..

لن تغادر قريبا.

انقلب كل شيء في ذهن سي مروان، وتلاشت إرادته هاوية بدائرة كاملة، لكنّه قرَّر الصُّمود بالرغم من صدى الرواق وكثرة السكون، وتغيرت شخصيته دون اتّخاذ القرار في ظلِّ انعدام الخصوصية، فتظاهر بقوة وجمود في المشاعر حتى لا يستغل الاخرون ضعفه المحتمل.

شعر سي مروان بأنفاسهم المتــــضامنة في عذاب الزنازين، والحارس الأبله أشدّهم عليه بلاء بنظرات الحزن والشَّفقة.

زاره السجَّان في غفلة، فتح عليه الباب وفكَّ قيده ثم نصحه قائلاً:

– ارحم نفسك وأخبرهم من قائدكم وستخرج فورا من هنا.

لَمْ يرد عليه بكلمة.. شعر سي مروان بالجواب يجلس مقام النَّظر، فهوت قامته منهكة فــوق السرير وغطَّ في نوم عميق، فأرهق شيطانه بأنين أرسله كرسالة مشفرة خطَّها بحبر الثِّقة وإحساس مكلَّل بشوق التّحرر:

– هل سيتذكَّر وجهها ...؟ قد هجرت لتقطن واد متجمد من عبق العطر انكسرت كؤوس الريحان على جوانبه..

لن يمسح التُّراب ملامحها، هي تحفة رسمها الإصرار إبداعا.

لابد أن تتحدُّوا، حتَّى لا يخرب البيت على يد السفيه، ولا تنس أنَّ الجميل يزرع ويحصد جميلا والشَّوك لا يحصد إلا الدِّماء.

استيقظ سي مروان على وقع صراخ الحارس عند رأسه:

– قم أيها الحثالة !! المحقِّق يحتاجك، قم ولا تتكاسل وإلاَّ هشَّمت عظمك.

نهض سي مروان مخمورا يتَّكئ على جسده، صفَّده الحارس ومشى على كعب قدميه نحو مكتب المحقِّق، وعندما وصل فتح الحارس باب المكتب وأدخل سي مروان.

صرخ المحقِّق في وجهه يائساً:

– لا تريد أن تعترف ...؟

أرى أنَّ رغبتك في السكوت لا تزال جامحة.

يصمت المحقِّق لثوان بعدها يشير للحارس ويطلبه قائلاً:

– ارجعوه إلى الزنــزانة ولا تنسوا أن تذيقوه عسل الألم، لعلَّه يرجع إلى رشده ويخبرنا من قائدهم.

همَّ الحارسان يمسكان بيد سي مروان لإخراجه، ونهض المحقِّق من مكتبه يهزّ برأسه قائلا:

– الحرية قريبة منك ...؟ فلابد من تعاونك، فما قولك ...؟ القرار لك اليوم، فكِّر في الموضوع...

غدا سنلتقي.

أشرقت شمس يوم جديد، سمع سي مروان الآذان وتيمم لكي يعطي اللّه حقَّه، بالرغم من أوجاعه وتعب الحياة البائسة، قام وركع تضرعا ليرفع عنه الهم والغم.

لم يتحمل الوقوف كثيرا..!! رجع سي مروان حيث وجد السكــينة للألم، وتمدَّد فأغمض عينيه متمنيا قدوم الفرج ثانية، فشاءت الأقدار وفتح باب الزنزانة على وجهي حارسين يقفان على عتبة الباب يصرخان:

– هيا...تحرك أيها الخائن، فالمحقِّق يريدك.

انزعج سي مروان وصرخ في وجهيهما:

– من قال لكم أنِّي خائن...؟ الخيانة أن تزينا القبح وتصفِّقا للقبيح والمستبد، فتقفا معه على ظهر حريّة غيركم وتتعاملا مع وطنكم وأبنائه المخلصين كأنَّه سبيل خلاصكم...

سيلعنكما التَّاريخ.

صرخ أحدهما في وجهه قائلاً:

– اخرس أيها الأبله، ألا تعلم بعد أنَّك سجين؟ يمكننا أن نفعل بك ما نشاء.

نهض سي مروان متثاقلاً، وابتسم قائلا:

– الراعي الذي يفتخر بالذِّئاب لا يحب الخراف.

صفَّدوه ومشى بينهما، وكان يتمتم على طول الممرِّ:

– أي جميل يثمر إصرارك وعنادك أيها المحقِّق...؟ فأنا حيٌّ اليوم كما تشتهي أمي أن أكون، لا تنسوا أنني تتلمذت على يد الزعماء..

التحدي ليس سهلا، وانتزاع الاعتراف هو جوهر الاعتقال، وأنت لا تعلم أنِّي عشت التَّعذيب، فلا تظن أنني سأقتنع بكلامك.

سخر منه على طول الرواق:

– مسكين هـــــذا المحقِّق، يتمنَّى أن أوقِّع له طواعية، ونسي أن أخطر شيء هو الجهل الصَّادق، يريد أن يجعلني غبيا في حضوره، ظناً منه أنّه أذكى، لكنّه مخطئ.

عاش سي مروان أوقات سوداء، لحظات الجحيم في حضرة المحقِّق يضحك ويستهزئ، لم يعلـــــم أنّه سيعكِّر صفو نهاره، فكانت إجاباته بالسؤال على كل سؤال:

– أي زمن هذا نحن فيه ...؟! أنت شيخ هرم ...

مختل، لا يصلح معك الرفق ولا المصالحة.

– لا تقل لي أنّك تجهل أنَّ أشواك الخيانة لا تزهر، وإن أزهرت في نظرك، فمن يجرؤ على تسميتها خيانة؟

شرد سي مروان لبرهة، كان يفكِّر في خيانة الضمير التي ملَّكتهم القدرة على المشي فـوق القلوب دون الشُّعور بالذنب، كونهم يأتـــــون دون أن ينتظرهم أحد ثم يغادرون، ولا أحد معني بمغادرتهم.

كان يبتسم في وجه جلاده قائلاً:

– الخيانة في حدِّ ذاتها موت حقير، وأنا لا أريد الموت حقيراً.

في تلك اللَّحظات لفظت ذاكرة سي مروان دابة الوصول لمرحلة الاعتراف، رغم الأساليب الكثيرة التي استعملها المحقِّق للوصول لغاية دحر إرادة النِّضال. شوَّش سي مروان يقظة فكر المحقِّق في كلامه قائلا:

– لابد أن تعلم، قبل وصولي إلى هنا حيث أقبع في الظَّلام الظَّالم اخترت عائلتي، التي في الشَّارع، هبة من الله، فلا تحاول معي لأنِّي لا أملك ما أقوله لك، فلن أخسر المعركة.

سأنتصر في الأخير.

انفـــجر الشَّارع كبركان ثائر، فكان يقذف الهتافات الحارة، والشِّعارات الصَّاخبة تركت صداها في الأذان، هبة شعبية، سلمية تحركت في ظلِّ التَّعزيزات الكبيرة.. بحثوا عن الروابط والتُّراث.

تعالت الهتافات مع اقترابهم.. سمعها سي مروان من داخل مكتب المحقِّق، فاحترق داخله والصَّدى يعبر البهو المخيف وجدران المكتب، والمحقّق واقـف كنصب الشَّيطان المتعجرف، بين أصابعه سيجارة يتصاعد منها عمود دخان يعانق السقف المهترئ جراء آهات سمعها من أفواه المعذبين: سقف توسطه مصباح تدلى من خيطه المكشوف، فلعنه سي مروان خلسة وكان ينظر إليه مقطِّباً جبينه.

صرخ المحقِّق في وجهه قائلا:

– اخلع حذاءك يا حثالة وتمدَّد على الأرض، وارفع رجليك عاليا.

خلع سي مروان حذاءه، وأخذ المحقِّق ينظـر في قدميه المتورمتين، فطأطأ رأسه وأشار بالعصا نحوهما ثم قهقه، وقال مستهزئاً:

– لا تزال هناك أماكن تصلح للضرب.

بدأ المحقِّق بالضرب وسي مروان يصرخ من الألم، حتى مرَّ شريط حياته مدوناً فيه رحلته التي مرَّ بها منذ كبلت يداه.

صرخ في وجهه دون رأفةٍ:

– أنت لست مواطناً صالحاً.. أنت خائن.. إما أن تعترف وتخبرنا من قائدكم، أو نجعلك في قبو النِّسيان ذكرى.

اكتفى سي مروان بالابتسامة بينما كرَّر المحقِّق كلامه:

– قلت لك ماذا ستختار ...؟

تذكر سي مروان دخوله للمرة الأولى غرفة التَّحقيق، يومها وجد ثلاثة أشخاص عراة تماماً، ينزفــون دماً وأقدامهم متعفِّنة، وتحت رعب المنظر صرخ في وجه المحقِّق قائلاً:

– لا أملك شيئاً..

ماذا أختار وماذا سأخسر من غير حريتي التي سلبت مني؟

– عليك أن تختار. تحدَّث المحقِّق بصوت خافت.

– أنا أناضل من أجل حريتي، يمكنني أن أمـــــضي الاعتراف، ولكن بشرط.. أن تطلق سراح كل من هم مثلي..

اتفقنا...؟!

ابتسم المحقِّق كالذِّئب الغدَّار قائلا:

– لا .. ! أنا أريد اسم قائدكم.

– صدِّقني، فهذا المحال بعينه.

أنا مناضل حرٌّ دون قيود.

ضغط المحقِّق على زر فوق مكتبه، فدخل الحارس الأول وتبعه الثَّاني، ثم أشار لهما لإخراج سي مروان وإعادته إلى قبره المظلم، وهناك تمدَّد على فراش الغربة يتحسَّس أطراف الخيانة المؤلمة.. ضاع جهده في أن يكون مواطناً حراً في رأيهم.

انبعث النُّور من الوجوه التي رسمها الحزن، على جدران قبر سي مروان المظلم، فهمست له مرة أخرى قائلةً:

– اندفع بحيوية فالنَّاس يحبونك.

– كيف أندفع ...؟ وأنا أصطدم بجدار السلطة، في رأيكم من جاء بي إلى هنا...؟ غير الاندفاع والتّحرُّر ...؟

– اليوم نهاية عذابك..

فقد بزغت شمس خروجك من هنا ولابد أن تكمل.

– أكمل ماذا ...؟

– ستكمل نضالك كالآخرين.

جمع سي مروان أفكاره وكان مستعدًّا للمغادرة، ولم تسعه الحياة في قبو العفن الذي كان فيه، فكان يتطلَّع لوطن

جديد اتضح له في نور تلك الوجوه التي رسمها الحزن على جدران الزنزانة.. تهمس في لهفة التّحرُّر:

– اليوم ستخرج من هذا الجحر، ستجده يجوب ساحة الوغى نصراً على نصرٍ.. فلابد أن تشعر بقوة العزيمة.

(٣)

عيون ساهرة...

عيونٌ مدَّت يد العون لسي مروان، فأخرجته من قبره المظلم.. منذ فطامه تعلَّم على يد الكبار أن يكتب المطالب حلما ووعداً، قطعه لقيادة قائد تحفظه البطولة، فحفظ الإصرار عن ظهر قلب وتخيل الحشود أمامه، ومنحه الظِّلُّ الجرأة لينظر في الأفق.

في غرفة النَّوم: مربعة الشَّكل، واسعة ، مقابل مدخلها سرير خشبي أحمر حوله بساط كثيف الوبر، وفوقه غطاء سميك موَشًّى بالأزهار، ويحيط بالسرير خزانة صغيرة فوقها مزهريتان، وعلى يمينه خزانة خشبية بنية اللون كبيِّرة متعدِّدة الأدراج، وتتوسط الجدار المقابل للسرير نافذة كبيرة أسدلت عليها ستائر، تكاد تلامس بلاط الغرفة من أبيض وأسود، كأنّه طاولة شطرنج كبيرة، وعلى يسار السرير مكتب خشبي قديم بني اللون، فوقه كتب وأوراق مبعثرة هنا وهناك، وأمام المكتب الصغير كرسي مريح تجلس عليه زوجة سي مروان " قوس الشّرق" تنظر في زوجها الممدَّد على السرير يشير لها عبر النّافذة إلى شارع بعيد لا يكاد يُرى من الغرفة قائلاً:

– هناك نصرنا، وتلك المطالب لن تموت، فاليوم رأيت الكثير حتمية عكسية، فأخشى أن ينتصر النَّصر المسلوب قبل قيادتي للمعركة الفاصلة.

– إذن تراه طعم نصر بذوق الهزيمة؟ قالت قوس الشّرق.

– هذه حقيقة، فأوقات النَّصر خطيرة.

تعسَّل النقاش بمنطق الجدل بين سي مروان وزوجته قوس الشَّرق، عن علاقة لم يرسمه، وحيلة حوَّلت موازين سعيدة الحظّ حورية السمراء التي فازت يوم خسارتهم، ولم تكن قوس الشّرق تعلم أنَّ قلبه لا يمكن أن يكون لغيرها ثوباً، حتى وإن تزوَّج الذباب الأزرق في حضور جيفة ضفَّة نهر المآسي.. يبقى الأمل قائماً.

سألته قائلة:

– كيف سميتم خليفة الثّورة...؟

– الخليفة فبراير، جذع من شجرة التّحرُّر والكفاح لرجال سبقوا عزماً ونحن لهم لاحقون.

خرج سي مروان يجوب الشّارع فاستوقفه الظِّلُّ الذي مشى خلفه يجوب الأزقة بحثاً عن حقيقة هجرت، بينما سي مروان يقتفي رائحة الشّقراء، ورذاذ قهوة انسكبت على تلال الحرية فجاب الشّوارع برفقته، وفي المساء عاد إلى بيته وجلس مربعاً رجليه، إلى طاولة شهدت حكاية جناح خائن، أجلسوه على

كرسي ورثه كبيرهم، وزوجته قوس الشّرق تكرِّر عليه السؤال قائلة:

– كيف أسميتم هذا المولود الجديد...؟

كيف هي رائحة أنفاسه...؟!

انهمك سي مروان في قراءة كتابه، وقوس الشّرق تختلس النظرات من تحت باب حيرتها، فترجَّل السؤال متردِّداً:

– لِمَ تسكت...؟ لِمَ تهرب من حقيقة أيامك...؟ لن تستسلم ما دامت رائحة التّحرر لا تزال على تلال المطالب.

صبيحة يوم الجمعة عندما خرج سي مروان يجوب الشّوارع قبل وصوله إلى ساحة الشَّهيد، مرَّ بنهج جميلة: جميلة شجاعة لا تغادر مخيلته، ثائرة توارت خلف الصخور بإصرار وشهامة.

نزل صديقه الأشعث في فندق رسم معالم عاصمة، وتفنَّن في وصف تقاليد شعبها الضائع في الأزقة يهتف ويصرخ:

– أريد الحرية والسلام.

– أنتم زوّار أم جئتم ...؟

هكذا كان يسأله.

– نحن أبناء الوطن، نحافظ على رسالة الشَّهيد.

أجابه سي مروان بقناعة وابتسامة.

– مرحبا بكم إذا بيننا.

كره سي مروان تعنّتهم، فنظر إليهم بعين الشفقة والاحتقار، سألهم مراراً ومن صميم قلبه، لكنَّ الصَّمت المدقع ألجم أفواههم ولم يتلقّ الجواب، إلا أنّه سرعان ما نسي الضغينة حين أمسك أحدهم بيده وأبى أن يتركه:

– عجبا ألستم داعمين لكبيركم...؟

جاب سي مروان شارع ساحة الشَّهيد وهتف بكل ما أوتي من قوة، عبَّر الجميع عـــــــن رفض ترشُّحه خامسة الخمس، وطالبوا بالتَّغيير في سلمية، وسط حضور أمني كثيف، أغلق في وجوههم منافذ الساحة، لكنَّهم تحركوا بعد صلاة الجمعة، يحملون العلم ولافتات كتبت بالحبر الأسود:

– عدالة.. سلمية.. لا خامسة..

حرية ولدت لتوها فتية لتسقط المستبد.

سار سي مروان برفقة الشَّيخ عثمان: الشيخ عثمان في الستين من عمره، وجهه قاحل، مصفر، وجسمه نحيل، فإذا مشى سار الهوينى لضعفه وانحلال قواه، وإذا نظر انبعث من عينيه بريق يهز أوتار القلب، ويبعث فيه الشَّفقة والحنان.

سارا عبر الأزقة حتى وصلا حيث رتّب كل شيء، وهناك أيقن أنّه جاء سعياً وراء التّحرر، ففرح الشّيخ عثمان واتخذ قراره قائلاً:

– ستقيم هنا، نحن في حاجة لمن يحفّز تّحررُّنا، ولكن ...

كيف لنا أن نسترجع حرية دفنت في قارب الموت؟

سأله في دهشة:

– هل يسترجعها الأمل المغذّى بالعزيمة؟

– قد جئت أشارككم، فلا تقلق.

اغرورقت عينا الشّيخ عثمان بالدُّموع قائلا:

– كيف ...؟ والأشباح تقمع الشّباب اليوم؟

– هذا جنون يا صديقي ...؟

كنَّا هناك معا ولم نرَ أحدا.

احتسى سي مروان الشّاي برفقة الشّيخ عثمان، وتحدَّث معه مطوَّلا، وبعد العصر استأذنه.. في بادئ الأمر غضب كون سي مروان لم يمتثل لرغبته الجامحة في البقاء.. لكنّه فهم قصده.

– اعذرني فهذا المكان المغلق يذكِّرني بغرفة نلت فيها نصيبي من العذاب، واليوم عندي لقاء مع ظلِّ التّحرُّر ولابد أن أذهب. قال سي مروان.

عندما دخل سي مروان مقهى الحاج تذكر مرارة الأيام، ولم ينتبه لرغبته تعانق يأسه، تحرقه يتيما من دون صديق يشاركه الذِّكريات غير حورية السمراء التي أضحت صديقة حميمة له، تهمس قائلةً:

– أعشقك حد الثّمالة.

عجز سي مروان عن التّعبير عندما رأى فارس قائداً: طويل القامة في العقد السادس من عمره، مرفوع الرأس ذو نظرة لا تخلو من حدّة، عيناه البنيتان كحبات بندق أسمر، وشعره مزيـــــج بين الأبيض والرمادي يظهر تحت بريقه أنفه الحاد، ولحيته الرمادية تغطِّي وجهه الأبيض.. لم يلتقيا منذ نهاية زوبعة الشّيطان الأخيرة.

صرخ وهرول نحوه فأسرع فارس ليعانقه:

– أنت هنا يا صديقي ؟!

الفراق لم يترك للكون ألواناً، فقط نبضات قلبيهما بقيت تتسارع وتهمس باسم التّحرر مع كل دقّة، والانتظار طويل

لمسايرة المطالب كما كان دوما، فتعانقا واغرورقت عيناهما دمعاً ساخناً:

– أنا هنا يا صديقي..

أتيت أساندك وتساندني كما كنّا أيام التّلال السوداء.

– نعم صديقي فارس، لقاء الأصدقاء بعد الغياب لحظة تُرسم أحداثها في لوحة ربيع العمر.

– تقطّع كـــــلام فارس بشعور فذٍّ وسعادة لا توصف، وسي مروان يعانقه ويضمه إلى صدره بكل ما أوتي من قوَّة قائلا:

– لا أظنّك نسيتها ...!؟

ابتسم فارس حزناً:

– رأيتها تسقط ...؟

كيف لي أن أنساها ...؟! سقوطها أفجعني، وصوت المذياع اللَّعين لا يزال يزعجني يا صديقي، أزيز الرصاص يمتزج بسرعة تلطم الصَّخرة بدمائها... تخجلني، واليوم يدنّسون التّاريخ عمداً.

– لن نرضخ لحتميتهم يا صديقي فارس.

اجتمعت الغاية والقدر، سي مروان برفقة صديقه فارس ومن كانوا معهم في مقهى الحاج، وخزتهـــم الأحداث

كإشارات واضحة، وكانوا يسمعون بحرقة لرسالة الظِّلّ يقرأها سي مروان، ولم يعرفه الشّعب الثّائر، فقط رسالة خاطبهم بها دون حضور.. أرسلها اليوم كناية:

– تحركوا أيُّها القوم.

الحرية لا تهدى على طبق من فضة، والاستسلام للغاية بذاته خوضاً لنصف ثورة، وحفرا لقبور جماعية، ومن يتذكّر تلَّ الأحزان يعلم أنَّ الجرح لم يندمل، ولا تزال الدِّماء الحمراء تفوح رائحتها من سنوات الجمر.. ولا نريد أن يعيدوا الكرة ثانية.. اليوم أطالبكم بالتّحلي بالوعي والعزيمة، ولا تنسوا أنَّ الغد الجميل مصيره مرهون بنا..

إذن كونــــوا أوتاداً ترفع همته، فيكاد الظِّلُّ أن يكون أحجية، يولد ويتحرك ويكبر ويصغر، له العزة والوعي والوقار دائماً.

انتهت الرسالة وابتسم سي مروان قائلا:

– حيث يوجد الكثير مــــــن الضوء يكون الظِّلُّ عميقاً، والآن..

نطلب من صديقي فارس أن يروي لنا القليل من تلك الجثث التي احترقت بنسمة النَّار.

– سأروي لكم عن تلك الخنادق..

عندما اقتربت صفوفنا على وشك الاشتباك، وتموَّه الكل بين أشجار الزيـتون، في خنادق حفرناها ودخلنا بداخلها، رفقة أصدقاء نذكرهم ذكرى خالدةً.. استشهدوا ونحن ننتظر عودتهم.

– صديقي فارس اليوم سنكمل نهجهم، وكم تمنَّينا أن يروا ما كانوا يطمحون له، ويتحقَّق رويداً.. رويداً.

– أبله.. من يصدِّق عدول المندسين بسهولة. قال فارس.

عقَّب أحد الحاضرين قائلا:

– ستنقض عليـــهم الأمة، وتنهي كل شيء في لمح البصر، لكن هل ستقودنا السلمية إلى الدّيمقراطية ...؟ ونحن على عتبة الاستنساخ الجديد ...؟

ابتسم فارس لذكاء المتحدِّث وطأطأ رأسه ثم قال:

– ما حدث اليوم غامض، والسلمية لا أراها تنذر بشؤم لأنّنا خرجنا لنتحرر، لكن الدّيمـــــقراطية ليست بالمجان، فهل فعلا الحرية ما نحتاج إليه ...؟؟

غابت شمس النّهار في خجل تودِّع الأفق، وبلهفة تفصح عن رفضها لوداع تلوَّنت السماء بلونه الأحمر، قدم عند المغيب، حتمية تسحب آخر خيوطها الذَّهبية ليختفي النُّور

والضياء، فتسلَّلت أشواك الظّلام وأسدلت ستارها الأسود لتشوِّه الألوان، والأرض مرتدية اللون القاتم.

كان سي مروان برفقة صديقه فارس وبعض الذين تحرروا من خوفهم المزمن في بهو المقهى، يناقشون الرغبة الشّعبية ويبحثون عن منبعها في حب الوطن، وكان الكل يسأل:

– هل سيتحقّق النّجاح ...؟

– شعبنا يملك حقّ الكـــــــــرامة، لكن لابد من الوعي، ستكون هناك حركة مضادّة والضحية الأولى والأخيرة، نحن وفقط ...؟

أجاب فارس.

بداية النقاش كان ظهورا لجدية سمعها سي مروان وفارس على لسان الشّباب الحاضرين، لكنَّهم سمعوا وطأ أقدام غريبة تقترب، ثم دقدقة على الباب الحديدي للمقهى الذي استضافهم بالتِّرحاب، فخرج سي مروان من البهو وتقدّم نحو الباب، وقف ينصت لبرهة فلم يسمع أي صوت، سكون مدقع توسطه ضجيج المحركات، وأبواق سيارات الإسعاف والشّرطة.

سأل سي مروان من خلف الباب:

– من هنا ...؟

– افتح الباب نحن نريدك.

صوت خافت من خلف الباب يجيب.

– من أنتم؟

– أنا مبعوث من عند الزعيم، افتح الباب ولا تثرثر.

لم ينس سي مروان تلك الأحداث والأســـــماء التي كتبت بالدم، أسماء رجال لم تنقصهم الشجاعة رغم تواجدهم في قبور الدّنيا، كانوا أسرى في دهاليز الظّلم الرطبة، فاحت منها رائحة العفن، لكنَّهم كتبوا أسماءهم بالدم على أوراق جلَّلها الإرهـــــــاق والألم، وتمسكوا بالصَّبر لكي تبقى ذكراهم رواية، تهمس لنا ككل مرَّة وفي كل المواقف:

– لقد غادروا، وحضن الموت أنفاسهم.

فتح سي مروان الباب، وخرج تحت جنح ظلام تذوب فيه الوجوه ونجومه يخنقها الأفول، في حضور بدره يشقُّ الرداء ويقترب مـــــــــن بعيد، يمهِّد الطّريق لفجر يولد من مهده، والشّباب يجتمعون أمام باب المقهى.

سي مروان برفقة المبعوث يتناقشان:

– ما الأمر الذي أتى بك ...؟ ومن أخبركم بمكاني ...؟

– لا تقلق فعيون الظِّلّ لا تنام...

يخبركم أنَّ الصّرخة الأولى لن تنهي أعوام الفساد، فلابد من جهد كبير واستمرارية للوصول إلى الغاية المنشودة.

انصرف المبعوث ودخل سي مروان والشّاب البهو لإكمال النّقاش، وكانوا يستهزؤون من تلك الحملات التي لم تفتح شهية الثّائرين، وتمنّوا وضع الأيام لحملها مولوداً، والجميع كانوا يتساءلون عشوائياً:

– أين المشكل يا ترى ...؟ في الانتماء أم في قدرته العقلية ...؟ ومطالبنا واقعية واضحة.

تحدَّث فارس:

– رأينا فتياناً وفتيات في سلمية بين ثلاثاء وجمعة.

بعيدا عن حدوث المؤامرة، فوحدها الأيدي الداخلية تهدِّم الأوطان، تعوَّدت الســــــرقة وتربت على الاختلاس في وضح النّهار، دون أن يحرك الشّعب ساكناً، واليوم يتساءل عن حال الحاكم:

– فهل هو حي أم أنّه دفن وانتهى زمانه ...؟

– سمعت هذا الحديث منذ مدّة طويلة. قال فارس

الغرفة السوداء، ومخزن أسرارها العميق، ألغازها لا تعد ولا تحصى، ولا يمكننا العثور على جواب حقيقي، قد يكلِّفنا غالياً، وقد تكون حياتنا على مقاسه.. فالسلمية تظهر كل شيء يمرُّ بمثالية، كأنَّنا ندخل فجأة صفوف المنتجين للدّيمقراطية.

– فهل هذا فأل خير أم وراءه شرّ مستطير ...؟ فحقيقة لا ثقة في هدوء يسبق العاصفة، والموقف في كل هذا يحيرني؟ فهل سيتكرر السيناريو؟ وقد رأينا الجميع يتساءلون، ويتباحثون السبب، بينما كنّا نعلم أنّ الجواب بسيط جدّا، ولم نتعوّد على الحرية دون اعتقال، لذلك كان لزوما أن نطرح السؤال: في صف من يقف اليوم ...؟ قال سي مروان.

ابتسم فارس قائلا:

– الشّعب أم السياسة التي رأيتها ملاذاً للجميع دون استثناء، لكن السلمية خرجت ضد الفساد وضنك المعيشة، ضد تعاقب عهدات كبير قــوم لم نعلم عنه شيئا، ولم يخاطبنا منذ سبعة أعوام، وقوله لا يغادر خيال.. " طاب جناني وعاش من عرف قدر نفسه "

الجملة راسخة في الذَّاكرة الصَّدئة، ونصف السلمية لا تعلم لما خرجت، فدائما هناك القطيع والذّئاب، واليوم تظهر لنا غابة للوحوش، ويجب أن نتحرى الرغبة، وكبير القوم لن يتحرك دون حاشيته المقرَّبة، والهرم المتشبع بأفكار تتغذّى على مصل سياسته منذ سنين عدّة.

– عمر الأجيال المتعاقبة. قال سي مروان.

رأينا الأمل فسحة سماوية، تطلُّ على مستقبل تحررنا وتجبرنا على الاستمرار والتّحدي، وتورثنا الطّاقة التي سنتجاوز بها كل العقبات ودون ملل، وقد مررنا بظروف مؤلمة، كادت أن تفقدنا الأمل لولا الحياة القاسية التي أكسبتنا الخبرة والتَّفكير بشكل منطقي وهادئ.. ثقة دون الاكتراث للعقبات.

صبيحة ذلك اليـــــوم أشرقت الشَّمس لتسطو على الأرض، وتخرج أشهى ثمار الشَّجر، حدَّق فيهم سي مروان وهم يمرون أمامه في ثياب بهية بين الأخضر والأبيض، ومناديل حمراء أظهرت فقط عيونهم الخائفة، ونظراتهم المصرَّة على الاستمرار والتّحرر، فارتشف فنجان القهوة المرَّة في مقهى سي الحاج، ثم قرأ عناوين جرائد أصابها طمث الرأي.. عنوان كتب بخط عريض أصاب سي مروان بالقشعريرة فقفز قائلاً:

– كيف هذا ...؟ ومن قال لكم أنّه خائن ...؟

سمع أحد الحاضرين في المقهى يتمتم لصديقه:

– خان الوطن، لقد اجتمع مع الأعداء.

علّق عليه الشّيخ محي الدّين، المتوســـط الحال، تجاوز الستين، بطبع لا يطاق لكثرة الغضب، بذيء اللسان وصعب المعاشرة، هربت منه الثقة فجلس لوحده في الزاوية:

– كيف يحدث هذا ...؟ وقد حصَّن البلاد لعشرين عام؟

مجرد ذكر اسمه يجعل الجرابيع تتألَّم، شهم صان الأمانة طـــوعاً وكرماً، أعقل النّاس على ضمائرهم الحية، وحادٌّ أكثر من حدِّ السيوف على من يبيع رسالة الشّهيد.

قاطع سي مروان الشّيخ محي الدّين في عجلة:

– خوَّنوه زورا وكذباً، كأنّهم لا يعلمون..

رجال صبروا لله ثم لسلامة الوطن، والله أحزن عندما أسمع أنّهم يتوِّجون الخائن بالوطنية، والوطني يدنِّسوه بالخيانة، لكن سيأتي يوم يعرف فيه الجميع أنَّ من دنّسوه هو الوطني، ومن وسموه بالوطنية هو الخائن الفاجر.

امتدَّ حبل الحديث فجاب الأفواه دون تمييز، فأحس سي مروان بفؤاده يحترق بنار تخمد فقط بضربة الموت.

– يخونونهم ويدنِّسون الرجال دون حجَّة. قال الشّيخ محي الدّين.

– تتذكّرون المجموعة التي اجتمعت قبل أيام ...؟ أفشوا كل شيء للعدو، وشقيقه ضحك علينا طيلة العشرين عاما. صرخ أحدهم.

اهتزت أعماق سي مروان، سمع بحزن تدنيسهم فخيِّل له الرجل الذي رأى نفسه فيه على تلَّة العفريت قد هرم، وشاب رأسه بشعيرات العزَّة والكرم، علم منذ زمن أنَّ الرجال الطيبين يُخدعون من أقرب المقربين لهم، فأرهقه سيل اليـأس الذي تدفّق من أعماقه، وقام ليغادر المقهى، لكنّ صديقه فارس أمسكه من يده وجره نحو طاولة خالية في الزاوية قائلاً:

– لا تقلق نفسك، نحن في زمن الرخويات، يهجر المستنقع تاركا البرمائيات تسبح في برَك قذارة قدرهم.

– كيف لا أقلق ... وأنا أسمع العجب؟

ابتسم فارس:

– نحن نحمل فقط أسماءنا وندوِّن كل شيء في الذّاكرة والعاجز عن رؤية الطّريق لن يتحجَّج بالظّلام، لأنّ الشّمس تشرق بعد فجر كل يوم.

انصرف سي مروان برفقة صديقه فارس، تاركين وراءهم أفواها تجترُّ الحديث في لوعة جبال الأنــــقاض سيرا خلف أثر نعال الزمن، الذي كان يبتعد عن أثر أقدامهما، وحورية السمراء تنثر رائحة الشّوق، والفساد تربع سلطاناً مستبداً يحتكر المنفعة منذ ولدته الساعة القديمة يتيماً.

جلس في غرفة نومه على كرسيه المريح، مربعا رجليه على المكتب الخشبي القديم، البُنِّي اللّون، وفي يده كتاب مفتوح على صفحات بيضاء، يحدِّق عبر نافذة كبيرة تتوسط الجدار المقابل للسّرير، دخلت زوجته قوس الشّرق فوجدته ينظر في نجوم الليلة الباردة عبر النّافذة..

لم يره حلاًّ، كما لم يرَ في الصُّراخ الدَّواء.

عرف الكثير محكمة للضمير، وحوله وطن أضحى لغزاً عجز الكثيرون عن حلِّه، وهذه ليست حادثة عابرة تقذفها ذاكرة التَّاريخ بعيداً.

– ذاكرة التّاريخ لا تنسى. قالت قوس الشّرق

– صدّقني، فقد تنفّسنا الوعي واستنشقنا منه مؤخّراً، لكن هل هذا هو المطلوب اليوم...؟

أخذ سي مروان كتاب ذكــرياته، وأخذ يقرأ من أوراق غرفة الألم، وفي حضور قـــوس الشّرق رأى الأمل بحجم التِّلال، حمله على كاهله مرارة، لذا قرَّر وضع المفتاح في منتصف الكتاب، وربطه بعقدة محكمة، وقوس الشّرق تنظر حائرة، وهو يهزُّ الكتاب قائلا:

– الزعيم خائن ...؟!

اهتز المفتاح الذي وضعه سي مروان وسط كتاب ذكرياته يميناً وشمالاً، ثم سقط منه وقوس الشّرق تنظر متعجبة.. أعلن نفيه للخيانة.

– مفتاح الذّكريات لا يكذب، ولا يتعاطف مع الخائن أبدًا. قالت قوس الشّرق مبتسمةً.

كرَّر سي مروان العملية مرَّة ثانية، ضابطاً أنفاسه وسط خوف قوس الشّرق من أن يفعلها المفتاح، ويخرج من كتاب ذكريات زوجها كما فعلها مع تحري حقيقة الزعيم، فيعلن نفيه للتُّهمة.

هزَّ سي مروان الكتاب للحظات قائلا:

– الشّقيق خائن ؟!

بقي المفتاح ساكناً راضياً، وفي تلك الأثناء شعر سي مروان بفرحة كبيرة، فأبقى على قناعته، ثم صرخ قائلا:

– قلت لكِ ... الزعيم ليس خائنا، إنّما الخيانة من الشقيق.

تجدَّدت حياة سي مروان محدِّقا في صورته المنعكسة على مرآة كبيرة في غرفة نومه، فتسرب الانكسار إلى كبريائه، وعجز عن رؤية السبيل للمثول، لم يعد شاباً يعبقه الخيال ويسايره الضعف الأضعف، فنظر في شاربه متــضائلا، غزاه الشَّيب

دون رحمة يتوسل، خاطبه كصديق وفي هجره حاملاً حقائبه في مهمة البحث عن غد أفضل:

– أنا مثلكَ الأعلى، فلِمَ تغير رأيكَ...؟

أنا لم أنبت فوق بركان، فأنا في وجهك الذي خطَّته المحن.

تركه يتحدَّث.. يسأل ثمَّ يجيب دون تفوه سي مروان بكلمة، فقد تهدَّم مقام الهرم، ورواياته التي كان فيها البطل الدَّائم.

خرج في جولة للتَّرفيه عن نفسه والتّحرر من العِدل الثَّقيل لخيانة نسبت لغير منتسب، وفي طريقه التقى بشمس مشرقة على الدَّوام، تعقَّب خطاها القمر المـــــضيء لسماء الحريّة، بضياء ورثه عن نجوم زخرفت العلا، وتغنَّت بجمالها كواكب زمن الماضي، ولآلئ أنجبها الحاضر على أبواب سلمية تنادي بالتّحرُّر من قيود الشّياطين.

انتبه سي مروان لشعار كتبته البراءة بلون أسود، فوق لافتة بيضاء رفعت وسط الحديقة، فتأهب لخوض معركة المطالبة بحقِّه المسلوب.

اقتربت دون أن يعرف من رفعها عالياً.

تساءل بينه وبين نفسه قائلاً:

– هل يتذكّرني الأشعث يا ترى ...؟ ماذا يخفي في حديقة يحرسها كلب ربطه عند المدخل ...؟

نبح الكلب ثم هزَّ بذيله، وإذا بسي مروان يرى الظِّلَّ يرافق امرأة يفيض وجهها بلهيب من الغضب وهي تغادر الحديقة: سيدة متوسطة القامـــة، عيناها جميلتان صغــيرتان، تلوح منهما نظرة عسلية حالمة، وأنف صغير دقيق، يتَّسع قليلاً عند فتحتيه، وفمها رقيق الشفتين تفتح الباب لأسنانها البيضاء، قوية ومنتظمة تزين وجهها الجميل المشرق، فهتف سي مروان بصوت مرتفعٍ:

– الحرية لحقي المعتقل.

كانت تراقبه من خلف ثوب السيدة وهي تخرج من الحديقة، ثـــــم ظهرت له الطِّفلة البيضاء المستديرة الوجه، ثيابها تلطَّخت بلون حـــــبر أسود كتبت به اللافتة، وجمالها براءة براقة تشعُّ بملامح السيدة التي تصاحبها، فتذكّر سي مروان " فرح ": طفلته التي لم تنجب، وروايته التي تمنَّى كتابتها، فتنهد قائلاً:

– لم أعرض عليها الزواج، ولم تلدها كما تمنَّيت.

وأخذ يصرخ هاتفا:

– أطلقوا حريتي المسجونة.. إنّها السـمراء، ليست مجرمة، ولا قاتلة لكي تسجن وراء القضبان. ولدتني على نغمة التّحرُّر مطالبا.. وطن يبحث عن أبنائه.

خرج الأشعث من مدخل الحديقة، فظهر اللّيل يختلط في شعره بلون الفضة، يحكُّ فرو كلبه ويحدِّث السيدة قائلا:

– ابتعدي من هنا، كلبي لا يعرف الرحمة ولا يقر بالهيام.

أخذ يلومها لأنَّها وقفت تحدِّق من بعيد في وجه سي مروان الشَّاحب، تلك الملامح التي حفرت عليها الأيام أنهار الأسى، وتحجّر اليأس في برَك تحت جفونه، لكنّه رأى فيه رجلاً غيوراً أصابه البؤس.

صرخ الأشعث في وجه سي مروان:

– من أنت ...؟!

– لم يتذكرني إذاً ...؟

همس سي مروان مع نفسه مستغربا، وتدفّقت الكلمات كالشّلاّل من بين شفتيه:

– نسيت الرسالة يا أشعث ...؟

تلك الرسالة التي سلمتها لكم في ليلة يملؤها البدر.

– عن أي رسالة تتحدّث ...؟ فالظّرف تمزق وانكسرت الحتمية.

حكَّ الشَّبح الأشعث شامة بحجم ياقوتة تعلو حاجبه الأيمن قائلا:

– الجواب لدى الجراح الأصم، هو الوحيد الذي بقي من زمن الوعد والأمانة.

شيخ طويل القامة وجهه أبيض، تغطي نصفه لحية بيضاء ناصعة، تعكس بياض قلبه الطّيب، يرتدي برنـــــوساً أبيض، ولكثرة صمته، لقّبه الجميع بالأصم.

بحث عـنه سـي مروان حتى وجده جالسا في مقامه متأملا، معتكفاً للعبادة، همس له وهو على بعد خطوات منه قائلاً:

– قد علمت أنك تتقصّى حقيقته، لذا لا تتشاءم...

ولد زعيما ونشأ زعيما وعاش زعيما.

حلّ فصل الخريف على الأغصان فتناثرت أوراقها، بعدما كانت خضراء صبغت بلون أصفر ذهبي، يستطرد القيظ ببرودة ظلٍّ، يقدح جمرات العنب لتنضج عناقيدها، سُحر سي مروان بصفاء المياه وطيب الهواء، فرائحة المسك تكشف حقيقة الأشخاص والأوراق.. بعضها سيسقط في أوّله، فيبقى

من يتحكّم بأصله لمراحل من حياة، سوف تسقط منها أوراقنا بعد أن كنّا أشجارا نضرة.

طأطأ الجراح الأصم رأسه ثم حدّث سي مروان قائلا:

– إنّه الأمين يا بنّي، فلا تغضب من ظلم بشر اعتادوا نكران الجميل.

رافق سي مروان الجراح الأصم والتحقا بمقر الثّائرين، الذي كان على مقربة من شاطئ تهب عبره نسائم النِّضال، غذت قلوب التّحرُّر بعزيمة أحبها الجميع، فحزن الجراح الأصم الثّائر عندما سمع أخبار الاعتـقالات، وكتم غيظه مراراً وتكراراً، فأدرك سي مروان أنّه عين لأجل مهمة صعبة، عندما أسرع الجراح الأصم بالخطى وقرع الباب، فردّ عليهما أحدهم قائلا:

– ادخلا ... أهلا بكما.

مرحبا بالثّائر.

عمي أحمد في الستينات من عمره، أسمر البشرة، قامته متوســـطة، شعره رمادي اللّون أظهر براءة وجهه المليء بالتّجاعيد، كان يرتدي سروالا بنيا وقميصا بنيا أضاف الحزن لمشهد الإصرار النّابع من ملامحه الصّارمة.

وقف سي مروان ينظر في عمي أحمد مذهولا متردّدا، فكان يجوب الغرفة ببصره جيئة وذهاباً، فأصـــــابه الأرق الشّديد، وغاص في بحر الأفكار يهمس بينه وبين نفسه:

– من هذا الشّخص يا إلهي ...؟

ارتسمت علامات الحيرة على محياه، فأحس كأنَّ المكان لم يعد يسعه، وكان ينظر إلى الساعة من حين إلى آخر، فجالت بخاطره عدّة أسئلة، عجز عن إيجاد أجوبة لها.

– أظنّك تعرف سبب قدومك اليوم؟ قال عمي أحمد للجراح الأصم.

طأطأ الأصم رأسه.

– إذن هل أنتما جاهزان...؟ قال عمي أحمد.

– نعم جاهزان.

– إذن سرا على بركة اللّه.

خرج سي مروان برفقة الأصم من ذلك المكان، وجابا الشّـــــوارع العريضة والأنهج الطّويلة التي رسمت بحزنها أسى العمر، وعندما وصلا إلى مدخل الـــــحي، وقبل أن يفترقا، ويذهب كل واحد في طريقه تريث الجراح الأصم قليلا، ثم نظر في سي مروان قائلاً:

– لقاؤنا بعد صلاة المغرب في ساحة المتحف.

– إن شاء الله، سأكون هناك في الموعد.

تخيَّل سي مروان وهو يقترب من باب بيته ظلَّ أمه، تخيلها تنتظره، فأسرع لحضنٍ دافئ اشتاق له كثيرا، فوجد نفسه يقبِّل جبين السراب، وتزعزع الإحساس في قلبه.. ظنّ أنّ أمه أصبحت اليوم، شبح الظِّل تحرسه بحبها وعشقها للحرية.

صرخ سي مروان في وجه السراب كأنّه يخاطب شخصا في وجهه:

– اصمت أيها الوسواس...

قهرتني ولا تريد الانصراف، وحتّى الزمن لا يريد العدل والإنصاف.

دخل سي مروان إلى البيت مسرعا، فألقى التّحية على زوجته قوس الشّرق، ثم قبَّل صغيره خالعا لباس الذّل وغسله بقبلة على جبينه، وعلّق سترته في معلاق الأمنيات المثبت على الحائط، ثم تناول الشّجاعة على يد قوس الشّرق في عجلة. تردِّد كلامها ككل مرَّة مبتسمة:

– وراء كل ثائر عظيم ثائرة عفيفة.

يوم كغيره من الأيام الخوالي، داعب سي مروان صغيره ثم ارتدى سترته من جديد، فخرج يودعها عند الباب:

– مرّ الوقت بسرعة، ولم أنتبه لاقتراب اللقاء...

لذلك لابد أن أذهب، سأرافقه إلى ساحة الشّهيد.

غدا يوم جمعة.

تذكّر سي مروان في طريقه تلّ العفريت، فعزم أن يعرِّج على بيت صديقه الذي نبت زهرة فوق تلَّةٍ وسط الجبال.. لم يسعفه الوقت لضيقه.

نصف ساعة فقـــط قبل تجمع الشّباب في ساحة المتحف، وقبيل بداية شغف دقِّ المهراس وصل، وبينما كان ينتظر الجراح الأصم، سمع شابا يلقي شعراً والبقية يصورونه بهواتفهم، وسرح عقل سي مروان في عذوبة الإلقاء:

" دقْ يـــا المهراس سمعني صوتك

نتفكروا أيـــام من تاريخنا لا تزول

دقْ يا المهـــــــراس نتفكروا وقتك

ما نخلـــــــوها في قلبنا ما تطول

نبداها بســــم اللّه وبالله نكبر

ونصلي على حبيب القـــــــوم

عام أربع وخمسين بداية نوفمـــبر

والشهيد كان على وطنه مجزوم"2.

وصل الجراح الأصم وجلس بجوار سي مروان، ثم نظر إليه وسأله متعجبا:

– فيمَ تفكِّر ...؟

– أنا أتمتّع بقصيدة ألقاها ذاك الشّاب.

يشير سي مروان بأصبعه ناحية شاب لا يتجاوز عمره الثلاثين سنة، له قلب رقيق تغمره المحبة والثقة، وشعوره مرهف، يكاد قلبه يتفجّر حسرة وسط حلقة من الحاضرين:

– لكن لِمَ نحن هنا؟

ولِمَ لا نأخذ الطّريق مع الأخرين كما قالوا لنا اليوم...؟

– حقيقة طلبوا منّا أن نرافق الجماعة، ولكن لست أنا الذي قرَّر الذّهاب معهم ...؟ ولم أطلب منهم شيئاً.

– لماذا ...؟ سأله سي مروان متعجباً

– ألم تفهم بعد سبب تعرض الأخرين للاعتقال...؟ يجدونهم في انتظارهم فيعتقلونهم قبل التّظاهر.

لم يناقشه سي مروان كثيرا، فقط اقترب من الشّباب يسترق السمع لما يدور ويجول في نفوسهم، وبعد برهة عاد إلى

[2] قصيدة للمؤلف

مرافقه الجراح الأصم، فوجده شارد الذِّهن، وبعد سماع أذان العشاء، بدأت الوفود تصل مع حلاوة دقِّ المهراس الذي دقَّه الأجداد قديما لجلب المطر ودفع البلاء عن الأمة.. لكن اليوم يحتجّون ضدّ ظلم وتعنت، تجسد في صورة شيطان قامع.

غادر سي مروان برفقة الجراح الأصم ساحة المتحف مشيا عبر الأزقّة، فمرا بفجوات الاضطـــهاد، وحاولت منع صراخهما، فشاهدا المشهد نفسه يتكـــــــرَّر كل يوم خميس، والكل يتحضر للجمعة سعيا بين الصّفا والمروة، لحجّ الحريّة المبرور، والأصم من بين القلائل الذين لم تصطادهم حواجزهم، فمازحه سي مروان على طول الطّريق قائلاً:

– حتّى النّملة لن تمر بجوارك دون أن تشعر بها، وليس عجبا، فأزقّة المدينة تعدُّها كما تعدُّ أصابعك..

مشيتها ليلا ولم تته.

تذمر الجراح الأصم قائلا:

– اعتقلوا صديقي...

الأمـــــر طبيعي، يطعنوك في ظهرك إن كنت في المقدِّمة، لكنّ الصدمة عندما يكون أقرب النّاس إليك.

قطعا المسافة سيرا على الأقـــدام حتى وصلا إلى ساحة الشّهيد، وبعدما انتهيا من مسيرة السلمية، ككل مرَّة كانوا في انتظارهما غاضبين:

– لم تتبعا الخطّة؟!

– وما أدراكم أنّنا لم نتبع الخطّة ...؟ أجابهم الجراح الأصم.

– المهم أنّكما بخير ولم تعتقلا ...؟

كلام ممزوج بين الفرحة والتّحسر، جعل سي مروان يعرف سرّ الغضب الذي عصف بهم مع نهاية كل مسيرة، وقد أخبره الجراح الأصم عن مكنوناتهم وأفكارهم المخزية:

– يغضبون ككل مرَّة لأنّنا لم نسلك الطّريق المرسوم لنا.

جمعة وراء جمعة، وسي مروان يقطع المسافة دون التّعرض لهم برفقة الجراح الأصم، تنقّلا دون توقف حتى وصلا بتاريخ جمعة: الاثنين والعشرين.. جمعة الشّوق.

في طريقهما مرَّا بمنازل وأزقّة، كانت في مشاهد أنقاض لم يبق منها سوى الجدران، تحكي أسى زمن عاش بقرية ولد فيها سي مروان، أضحت كهرم فرعون المردوم، فتمتم سي مروان في حسرة:

– عرفت بيوت قريتي وتذكّرت أهلها، فما أصعب أن تبكي بلا دمـــــوع وأن تذهب بلا رجوع، من يوم ابتعدنا، كأنَّ الفراق سحب بساط السعادة من تحت أقدامنا.

عرَّجا على ما بقي من باحة أجداد سي مروان، واقتربا من بئر حفروه وسط الباحة، ثم تسلّق شجرة التِّين، وقطف من ثمارها.

لم يبق في القرية إلاّ الأشباح يأكلون منها...

في ظلِّ تلك النّشوة، رأى سي مروان ظلَّ أمــــه تقف قرب البئر، وككل صباح تسقي الأغنام ماء، ورأى صباه على ظهر مهرة أحبها كعشيقة لها وجــــه القمر، ورأى أباه يمتطي حصانه الأسود، ويضرب بسيفه البتّار رؤوس الفتنة، وكان يتبختر وينفتح له قلب الفتاة في خجل، ليرى شبابه يعاتبه العشق الممنوع، ويصده عن الحب الأول الذي جناه، يـوم جنى ثمار التِّين التي سقطت فوق عشب الأيام اليابسة، فتمتم قائلا:

– قريتي لا تزال على حالها، أراها وأنا متسلِّل تحت جنح الظّلام.. ولست وحدي أشتهي حلاوة اللقاء، حتى هي تفتح عينيها وتلوِّح لي حين أبتعد مرَّة أخرى.

مشى سي مروان برفقـة الجراح الأصم، لغاية جمعة الشّوق نهارا، وتحت جنح ظلام حياة تستنجد بالأمل الذي غذّى خطواتهما بالإصرار، وصوت نسيم يلامـــــــس أوراق الشّجر، حفّزهما كشحنة كهرباء وخزت قدميهما، وحثّهما على المشي دون تعب، لغاية الوصول إلى المشارف المتربعة على أطلال ساقية الدّم الممزوج.

وصلا في أواخر النّهار، وجلسا على صخرة ملساء، تخيلها سي مروان مقعدا من رخام الأباطرة والسلاطين، فأخرج من جيبه ساعة قديمة وتفقّد الوقت. أشعل سيجارة وأخذ يدخّنها بشراهة، نظر إليه الجراح الأصم قائلا:

– لقد تأخّر الوقت لكنّنا وصلنا يا صديقي، نرتاح هنا وفي الصّباح نهتف بما أوتينا من قوة وصوت.

كانا متعبين فتمدّدا، ولم يشعرا بمرور الوقت، حتى استيقظا على حلكة اللّيل تلم خيوطها الأخيرة، متهيئة لظهور أشعّة شمس وصلت قبل ظهور قرصها الأصفر.

نهضا وغادرا المكان مسرعينِ، نحو مقهى يتربع على واجهة الشّارع، وجلسا يحتسيان الشّاي، فابتسم الجراح الأصم في وجه سي مروان قائلاً:

– لقد تعبت، هل يمكنك أن ترحني قليلا؟

– بم أريحك يا صديقي ...؟

– أرحني بعنقود شقراء ...؟

– تلك حادثة من حديث الصّيف يا صديقي ...

قدم برفقة ابنته لقطف العنب، صبية كبدر أشقر ترتدي ثوبا أظهر مفاتنها، نظرت إليها فثار الدّم في عروقي، وقفز البدر يخور على ركبتيه، أجرُّها من يدها بقوة اشتهائي لأنوثتها، لكنني تجمدت دون وعي عندما رأيت شدّة الخوف في عينيها.

ابتسم للذّكرى وسأله عن رائحتها التي دفعته للنفور قائلا:

– لماذا عطرها لا يفارقك ...؟

– لا أعلم لِمَ لا يفارقني يا صديقي.

– لأنّه جزء منك.

– حقيقة...!!

هكذا يهمس لي شيطاني كلما سألته عن الهيام.

قرابة نصف يـــــــوم وسي مروان برفقة صديقه في المقهى، يرتشفان الشّاي الساخن والقهوة المرَّة، ويدخنان سجائر اليأس، وعندما بدأت السلمية تتجمع في ساحة الحرية دخلا وسط الجمع وساروا يهتفون ويصرخون بمطالب نقية.

أملس ثوب سي مروان من امتزاج العرق بالغبار، لكنّه أكمل السير نحو القمة برفقة صديـــقه الجراح الأصم رغم رائحة الخيانة، وبقيا على حذر حتى قطعا نهرها، وألقيا بذكرياتها في مياهه الراكدة الباردة.

سمع هتافات أحدهم وسط الزحمة:

– لعنة اللّه على المتشبه بالزعيم، أشخاص لم تحركهم الشّهامة وسعي الشّعب محترم بأصله ومطلبه للتّحرر.

هذه البداية وليست النِّهاية.

يوم سلَّم سي مروان الرسالة للأشعث مزقها بكل ما تحتويه من عبارات، يومها كان يهلوس، ويعبث بأصابعه في شعره الأشعث المطلي كلوحات (بيكاسو) بألوانها المختلفة، فأخرج من جيبه خطاباً مطوياً بعنايــة ضاقت له عيناه، ونبتت التّجاعيد على جبينه، تغضنت أنفاسه وتسارعت؛ فأخذ يقرأ تلك الكلمات، وعيون سيدة متوسطة القامة، تشاركه القراءة دون أن ينتبه.

يقرأ ويتمتم:

– تعرف جيدا أنّهم لن يتركوك وشأنك، لذا لابد ألا يضيع مجهود السنين سدى، اليوم أرسلت لكم ما تخفونه عن أعينهم.
سأختفي لوقت مـــــن الزمن، لذا لا تكلِّموني في

الهاتف، تذكّروا فقط المقهى الذي نتقابل فيه دائما.. أرسلوا القرارات مع أحدهم وأنا أستلمها بطريقتي..

هذه مؤامرة، وأنا متأكِّد أنّ للاثنين علاقة بما يحدث، فلا نعلم متى تقرع طبول الحرب، فقط نتدرب للحفاظ على وعينا وأرواحنا، وبهذا يكون الانتصار.

لا يزال على أعقابهم ...

غادر الأشعث ورأسه يملؤه السؤال، فلفّ جسده ودخل المرحاض دون أن يغلق الباب، ونظرات الدّهشة بادية على التّردُّد الذي هتف من فم تلك السيدة في حماسة:

– انتظرني من فضلك ...؟ أريد أن أدخل معك.

– ماذا قلتِ... !؟

– لا شيء، أسرع فقط فليس أمامي اليوم كله.

انتظرت السيدة لمدّة من الزمن، وعندما خرج الأشعث كان مرتبكا وغير مرتاح، فأسرع بإخراج ورقة من جيبه، ودوّن عليها بعض الجمل والأرقام، ثمَّ أعطاها لها وهو يعتذر عن معاناتها، ويوصيها بضرورة تسليم المعلومة الجديدة في عجالة.

همس لها قائلا:

– أسرعي في إيصالها فالوقت ينفذ.

بدأت الجموع تتوافد.. وقف سي مروان بالقرب من مجموعة نساء، ارتدين الأبيـض سلاماً ممزوجاً بأخضر الامتنان، توَّجه الأحمر الزكيّ النّقي دماء الشّهيد، فسمع صوت شيء تحطّم، فأسرع الفضول يهرول به نحو طفلة تقف وسط الزجاج المنكسر، المبعثر على الأرض من بقايا مزهرية نحتت عليها صورة "جميلة"، تبكي الطِّفلة وتصرخ، فحملها سي مروان وعانقها، وعندما هدأت أعطاها لأمها التي أقبلت عليها بلهفةٍ، ثم نظر في الشّاب الذي تعمد كسر مزهرية الفتاة بنظرة خانقة، غادر على إثرها الشّاب الساحة مسرعا.

بدأت المسيرة في جمع غفير وهتافات عالية:

– لا تباع...

هتافات سمعها الأصـــم والحوت الأزرق الزائر للسلمية، وفجأة سمع سي مروان صراخا قويا جعله يسرع الخطى صوب شخص لم يتحمل الزحمة، فسقط وسط الحشود جامدا لا يتنفّس، وسي مروان يصرخ قائلا:

– إنّه حسان ...

إنّه حسان، وتشاء الأقدار أن يلفظ أنفاسه وسط السلمية المباركة، روح سلمية لم تضرم النّار التي نسبوها لها، دون تفكير، رحل غانما بالشّهادة، لقد سقـــط من فوق

الشّاحنة، ولحق به رمزي متأثرا بجروح أصابته في رأسه، وكان الجراح الأصم يضغط على جرحه ويبكي:

– لا ترحل، نحن لا نزال في حاجة إليك.

أجابه رمزي دون أن يفتح عينيه:

– كم بقي لي من العمر أعيشه في رحب الشّقاء ...؟

– هل نسيت لما خرجنا نتظاهر ...؟

– لن تموت لأنّك قوي، والعمر ليس لحظة. قال الجراح الأصم.

ابتسم رمزي رغم الألم قائلا:

– خرجنا ندافع عن حقِّنا...

هذا الوطن استشهد في سبيله الأبرار، أراهم معي الآن يبتسمون.. قل لها فقط أنّي شهيد، فأنا أستحي منها وقد تركتها وحدها حين خرجت، ليس لها غيري..

اطلب منها أن تسامحني.

انطلقت به سيارة الإسعاف ولم توصله حياً إلى المستشفى، غادر باكرا وترك والدته وحيدة تبكي فراقه، تصرخ قائلة:

– لقد مات شهيدا، ضحى بنفسه يدافع عن أرضه وأبناء شعبه..

هذا رمزي الشّهيد.

جمعة الرحيل: غادر فيها الأربعة دون وداع، رحل عنّا نبيل.. سكت قلبه فجأة وهـــــــو يرشُّ الصّائمين بماء بارد، وانطفأت شمعته تاركة ثلاثة نجوم صغار، ولم تجدِ نفعا كل الإسعافات التي قدِّمت له، لفـــــظ أنفاسه في نهاية اليوم، فترك الحزن والتّعاطـــــــف متداولا لصوره عبر المواقع، ممدّدا على الأرض جثّة هامدة. سقـــــط، فسقطت معه لافتة تدعو برحيل الأخطبوط الأسود، شهداء السلمية، ذكراهـــــم لن تحال على النِّسيان، سقطوا من أجل تحريرنا.

صورة تركت في نفس سي مروان وشما مؤلما، شاهده الجميع متحمسا للمضي قدما بقارورة أكسجين يجرها بكل إصرار، ولم تفارقه طوال السلمية.

هتف الجميع برحيلهم، فتعالت الصّرخـــــات شيئا فشيئا، وتحوّلت إلى التّكبير، والاستغفار مع مرور جنازة بالقرب منهم، وفي كل سلمية يلتقي سي مروان بحميد يغرس شجر الزيتون، ويطلق الحمام الأبيض في الشّارع.

فتح الحلم أبوابه في وجه سي مروان.. رنّ هاتفه، فأسقط مزهرية مـــــن فوق طاولة في غرفة النّوم محاولا الوصول إليه، كان يعلم أنّه سيعاود الصّراخ لمرة ثانية وثالثة، ولن يصمت حتى يجيب عليه:

– صباح الخير جراحنا الأصم.

– ما أصاب عقلك هذا الصّباح يا صديقي؟ قال له الجراح الأصم باستهزاء.

– انهض، فالوقت يمر، ولا تتمردْ على حتمية حضورك اليوم، لابد أن تكون هنا في ظرف ساعة.

نهض سي مروان يجرُّ جسده متكاسلا، تذكّر أنّه في غرفة فندق ولا خيار له إلا النّهوض، وبدأ يتمتم مع نفسه:

– سأجدهم في انتظاري ...؟ لو بقيت في بيتي أولى لعقلي.

نظر سي مروان في ساعة مثبتة على الحائط فوجدها تشير إلى تمام الثّامنة والنّصف صباحا، فدندن بكلـمات بقيت عالقة بذاكرته، ثم أجرى مكالمة سريعة مع زوجته قوس الشّرق وطمأنها قائلا:

– صباح الخير قوس الشّرق، لا تقلقي فأنا ذاهب كالعادة.

– كنّ حذرا ولا تتهوّر، لأنّي أعرف أنّك عندما تتقدّم باندفاع لا تتراجع بسرعة.

أنهى المكالمة بلمسة دون تحية، ثم أخرج ساعته فاندهش من مرور الوقت.. "إنّها التّاسعة والنّصف".

فتح سي مروان باب الغرفة وخرج مسرعا، وجدهم مصطفين على رصيف شارع الشّهيد، بدا له كمؤشر تحذير لقمع قريب فطأطأ رأسه قائلا:

– إن أمطرت اليوم سلاما، ستمطر غدا سماء زحل ورد الهيام.

سمع سي مروان أصــواتا وصراخا، ثمّ مروا بجانبه مهرولين، وعيونهم تدمع من شدّة الاحمرار، فاستوقف أحدهم يسأله:

– لم أنتم فارون؟

– نهرب من الدّخان والضرب..

هجموا علينا دون تمييز.

ظهرت امرأة تحمل طفلة تصرخ وتبكي أمـــــام سي مروان، وكان صراخها يشقُّ سكون أذنيه، ويمزجه بضجيج هول الشّارع، فأيقن أنّ الحادثة ستترك في نفسها أثرا لن يزول.

فرَّ الكثيرون، وبقي سي مروان واقفا، انتظر ظهور الجراح الأصم وعندما وصل أعطاه الرسالة دون أن يتوقّف، فأسرع بدخول إحدى البنايات يتوارى عن الأعين، وشعر بضربات قلبه تحطِّم أضلعه.

فتح الرسالة.. قــــرأ منها أسطرا بعشوائية، ولم يفهم شيئا، سوى عبارات نفر منها قلبه وعقله، فأخرج سي مروان ولاّعة، فأحرق الحية التي كانت تسعى للدغه، في شؤم تجلبه تلك الورقة المشؤومة، وتساءل مع نفسه:

– يمكنهم دفعي إلى حافّة الإعدام لا محالة.

لم يملك يومها سوى عقله سلاحا، فاتجه به على الفور إلى أقرب تاجر يعرضه للبـيع، لكنّه لم يقوَ على بيعه وقبض الثّمن، وتلك السيدة المرافقة للأشعث تراقبه غاضبة، قائلة:

– أنت تأمل أن تمسك دنانير ذل بين يديك، غنيمة لا تساوي شيئا أمام حسان ورمزي وحميد.. أرجوك استيقظ.

حمل سي مروان فأس الشّقاء على كتفيه، وبدأ حياة التّعاسة برفقة قدره القاحل، فأسرع بالعودة إلى ساحة الشّهيد، ليكمل ما كان ينوي نثره هباء منثوراً، وهناك التقى بالسيدة ذات العيون العسلية، التي رآها برفقة الأشعث

تحمل لافتات لصور جبال تجذبه الذكرى لها، فلم يتردَّد.. يحدثها قائلا:

– أتعرفين...؟ هذه الجبال أجوبها مرارا مع الذِّئاب.

ابتسمت قائلة:

– ولم أغادرها لحد اليوم، والآن هيا نكمل السير، بعدها لكل حديث حديثه.

–

(٤)

قبور الأحياء...

اعتقلوا سي مروان وعاد لتلك الزنزانة: قبر الحياة رُسم على مقاس أيامه، بدايةً برفع العلم، لكنّه رأى نفسه يوثِّق ذلّهم وهو مكرم، زنزانة باردة لم تخل من ضيوف عاشوا برفقة سي مروان بين حناياها، عندما دخل عليه الحارسان وطلبا منه الخروج.. مشى بينهما كعروس بحر أسود فقدت عذريتها بين الملح والحجر، لكنّه عرف الكثير عن معاملتهم.

أخذه الحرسان إلى مكتب التّحقيق في الجناح الخارجي.

– صباح الخير.

– تفضل اجلس.

تذكّر سي مروان لقاءه والمحقِّق الأول.. صفعة قوية أفقدته التّوازن، وجعلته يسقط على بلاط الغرفة، يلعق نجاسة أقدام داست على كـــــرامة حقوقه، مشهد دار عكس عقارب زمنه، والمحقِّق أهمله لبضع ثوان، منهمكاً بإمضاء أوراق مبعثرة على مكتبه.. سي مروان يضبط أنفاسه حتى لا يضحك.

تخيَّل المحقِّق نفسه روائـــياً يكتب رواية: ألف قدر وقدر، فأراد أن يكتب قدر سي مروان بقلمه العقيم، ينظر إليه في هيئة (العائد هتلر): جاحظ العينين، تلمعان من خبثه، نحيف قوي، وليس كالذي تعامل معه في سابق اعتقاله.

خاطبه قائلاً:

– ما اسمك...؟

– سي مروان الثّائر.

– اسمك ثائـــــــر، أو سائر؟ أسماء يعرفك بها البعض، ظننتَ أنّنا لا نعلم خطّتكم...؟ نعرف كل شيء عنك أيها الشّبح.

– أي شبح تتكلّم عنه ...؟ الأشباح موجودة فقط في كتاب (أسطورة بيت الأشباح للدّكتور أحمد خالد توفيق)، أظن أنّك تقرأ كثيرا عن الأشباح المفقودة.

– نضالكم "فيسبوكي" لافتات فقط، وهذا نضال خرافي.

حدّثه المحقِّق بنبرة عالية وسريعة، ثم نهض من مكانه وصرخ في وجهه:

– تتعاون معنا وإلا ...؟

– لن أخون أبدا وطني وشعبي.

صفعة قوية أسقطته على بلاط الغرفة، يلعق نجاسة أقدام داست على كــــرامة حقوقه، نهض وللمرَّة الثّانية تلقى صفعة، ثم ثالثة ورابعة، وبعدها رفع المحقِّق العصا من فوق مكتبه، وصرخ في وجه سي مروان قائلاً:

– انزع حذاءك، وتمدّد على الأرض، أريدك أن ترفع قدميك في السماء كجارية باغية.

ضربٌ أفقده الوعي، ولم يشعر إلا ورشة ماء بارد تنسكب على صدره، نزلت كأنّها من شلال جامد، فاستفاق سي مروان واقفا على رجليه رغم الألم، والمحقِّق يصرخ في وجهه مرة أخرى:

– يعني ... لا تنفع معك اللباقة ...؟ عموما ... سوف نحوِّل ملفك للجماعة، سوف نرسلك قريبا.

– ترسلونني ...؟ إلى أين...؟

– إلى الجحيم. قال المحقِّق.

– لماذا...؟

وهل تملك أنت مفتاح باب الجحيم؟

– أعمل مع عزرائيل، يا أيها الشبح...

سخر منه سي مروان:

– لهذا أوكلوا لك مهمة التّعذيب.

نظر إليه بقلب راغب في قتله، وأشار لرجاله فأخرجوه من المكتب وأرجعوه إلى الزنزانة، فشعر بقلبه ينقبض خوفا من مصيره المجهول، فتخيّل سي مروان أنّه مراقب هناك.

في المساء طلبه المحقِّق...

بدأ يسأله:

– لا تريد أن تتعاون معنا ...؟ إذن سيضيع عمرك هنا..

كيف تريدني أن أساعدك وأنت لا تريد التّعاون؟

– أبداً أخون مبادئ نشأت وتربيت عليها أيها المحقِّق.

كتب تلك الملاحظات على الملف أمامه، وبعدها طلب من سي مروان الإمضاء لكنّه رفض، فغضب وأخذ يضغط على الجرس، وفي تلك الأثناء دخل الحارسان وأخذاه إلى قبر الحياة.

كان متعباً لذا تمدّد على السرير ليرتاح قليلا، وفي الليل جاء الحارس السمين فأخرجه من زنزانته في عجلة، ونقله إلى غرفة معزولة، عرف بداخلها معنى الخوف، كل الممرات تؤدي نحوها في قبو مظلم أناره مصباح صغير، تدلّى من منتصف السقف في خيط مكشوف، ووسط الغرفة طاولة وكرسي حديدي.

تعجَّب عندما دخل.. لوحة معلّقة على الجدار أشعرت سي مروان بالرعب، وشخصان ينظران إليه بنظرات مرعبة، حاقدة، الأول طويل القامة، أسمر وعيناه سوداوان تلمعان تحت شعره الأشــقر، ولم يكثر معه الكلام، أما الثاني غليظ، مسنّ بعض الشيء، وجهه طويل، وجبينه عريض، شعره

خفيف مشطه جانبياً حتى ظهرت أذناه الكبيرتان، وشاربه الأبيض عرضه عرض ابتسامته.

ابتسم غدرا ليعذبه نفسياً.

– لا يعلم أنّني من العذاب خلقت وترعرعت. تمتم سي مروان.

أجلسه الغليظ على الكرسي الحديدي وبدأ يتنقَّل من سؤال إلى سؤال ومن إجابة لأخرى، فعرف سي مروان أنّ أسلوبه افتراضي في التّحقيق، ولم يتقن اللعبة الماكرة من خداع ومراوغة لإيهامه بمعرفة كل شيء، فهم اللعبة، ولم ينزلق بقناعة لإثبات التهمة على نفسه، والتّعرض لمزيد من التّعذيب، وقد حاول المحقِّق زرع الشّك في نفسه محاولا إفقاده الثقة في كل شيء، وفجأة صرخ في وجهه:

– أنت الشّبح فلِمَ تنكر...؟

– أنا سي مروان ولست الشّبح.

لا وجود للأشباح إلا في ذهن كاتب الرواية.

– أنت الشّبح ونحن نعلم، وسنعلمهم أنّك تتعاون معنا.

صمد ولم يأخذ منه شيئا.. خرج وتركه برفقة الطـــــويل الأشقر، يبتسم في وجهه غدراً، وبعد برهة دخل متجها نحوه

مباشرة يتكئ على الطّاولة، ثم ابتسم تصنعا كأنّه اشترى الابتسامة في طريق عودته للمكتب، ثم سخر منه قائلا:

– أريدك أن تحدثني بصراحة، فقد أعجبني صمودك.

– أتمنى أن يكون الشّباب كلهم مثلي.

– هذا ما سيبقيك هنا لعشر سنين.

قاطعه المسنّ مهدِّداً سي مروان:

– نستطيع أن نلفِّق لك تهمًا تحاكـــــــم عليها مدى حياتك، لكنّي سأقدم لك نصيحة، ولست مجبرا على تقبلها.

في تلك الأثناء دخل دون استئذان، شخص ببذلة ونظَّارات سوداء، أسود في أسود حتى احتار سي مروان، وهمس السؤال بداخله، يتحرى إمكانية رؤيته الجيدة بنظَّارات سوداء، وهم في غرفة مظلمة كالقبر. اعتدل الاثنان باحترام، فقد شاهدا (لوسيفر)عائدا من معبد الشّيطان يفتح الباب، وعلى لسانه جملة واضحةً:

– لن يفكِّر في أي شيء، سيطلق سراحه الان.

تبادلت النّظرات وتعاكست دون أي كلمة، ثم التفت نحو سي مروان يخفي الوردة التي نبتت في قلبه، فرحة يتيم رأى صديقه ينام في حضن أبيه، ثم ابتسم قائلاً:

- أنت حر ستخرج حالا.

تخبَّط كل حرف في عقله، وتمتم الشّعور بوابل من كلمات متقاطعة، وأخذ يردِّد:

- نعم حرية.. سأخرج من القبو المظلم، فيه تزاحمت الأفكار في رأسي، سأشاهد شمس الليل، وسأستنشق نسيم الحريّة.

طرق سي مروان باب بيته لمرَّات، لكنّه ظلَّ على سكونه ولم يفتح، فأخرج هاتفه وأجرى مكالمة سريعة ليوقظ قوس الشّرق من سباتها:

- افتحي الباب.. ها قد عدت متأخِّرا...

أفرجوا عني في ظلام نورٍ يضيء طريقي للتّحرر.

فُتح الباب.. فأحسَّ بما فقده في ضيافة قـــبر الدّنيا المظلم، وشعر بنشوة جعلته يستنشق هواء حلّق به بين نجوم مسائية، ينظر إلى أسفل سافلين، وفي نفسه نية التّبول عليهم كلّهم.

الان هدأت أعصابه.. تناول هاتفه وتصفّح ما نشر، لم يفهم شيئا مما كتبوه، قرأ وأعاد القراءة دون أن يستوعب فقر حلاوة الأيام للذِّكرى، واليأس ينتصب أمام عيونها، وفوق أغصان شجرة الزقّوم يبنى أعشاشاً، رأى الدّقائق من خلالها

صرخاتٍ ووثباتٍ من سقوط حر، انكسر فيه الأمل وتعطّلت الأحلام، فهمس قائلا:

– مصيرنا مجهول يسير في الطّريق القاتم.. فلِمَ لا نبصر غير خطى شيطان يضحك في وجوهنا، بينما نحن نرفع له العلم فوق أرضه اليائسة البائسة، فتعكس حرارة وهج شيطنته؟

دخلت زوجته.. قلب بغرفة واحدة دخله ولم يخرج، بينما قلبه كما أخبره المحقّق فندق به عدد كبير من الغرف.. هذه هي حالة الشّبح!

– من هذه التي تسكن جناحك الخاص...؟

سألته ففتح فاه، ولم يجد جوابا يقنعها، حدّثها عن الزنزانة الرطبة، وعذابها المسموم، عن بطولة وجوه بقيت على جدران غرفة القبو المظلم ذكرى، حدّثها عن الأشعث وخطابه المطوي بعناية، ثم روى لها قصّة السيدة، وطفلة تداري ظلَّها عند مدخل الحديقة، وعن الرسالة التي قرأ منها جملاً عشوائية، وعن اعتقاله وزجِّه في زنزانة بعرض قبر الحياة، رُسم على مقاس أيام صفعته فوقع يلعق بلاط غرفة نجّسته أثر أقدامهم تدوس الكرام.. كل الممرات تؤدِّي نحو غرفة القبو المظلم.

سكت قليلا ثم حدثها مبتسماً:

– سأكون الشّبح الحكيم.

– رحلتك لن تطول كثيرا، سيقرِّرون نهايتها قريبا.

ارتدى حذاءه الأسود وخرج من البيت مسرعا، كاد أن يسير على بطن كلب فطِم، ساقه القدر وهرب نحوه يختبئ بين أقدامه، ركله سي مروان حتى نسي لوهلة أنّه كلب مطيع، ثم ركب السيارة وانطلق يجوب الشّوارع التي حنّ لها قلبه، فقد نزل ضيفا عند الطّاغي القامع لمدّة من الزمن. رنّ هاتفه بينما كان على حافّة البحر الأزرق، يتصفّح ما نشر على مواقعه.. أجاب على أحدهم.. عاجله فيما يشبه الاعتذار:

– علقنا في زحمة السير وسنتأخّر عن الموعد.

ردّ في الهاتف مازحاً ضاحكاً:

– من منّا لا يعلق في هذا الوطن؟ أراك في الموعد.

تحدّث سي مروان بثقة ولم يعرف من كلَّمـه، لم يسأله من يكون، كان ضائعا والزنزانة لم تترك له عقلا يفكِّر به، وفي الأخير تشجّع قائلا:

– اعذرني على وقاحتي.. لا أعلم من تكون وأي موعد تتحدّث عنه؟

– سأخبرك عندما نلتقي في ساحة الشّهيد.

انقطعت المكالمة فأســـــرع سي مروان نحو ساحة الشّهيد، متعبا ولم يزره النّوم الليلة الماضية شوقا للحديث معهم، مما تركته الزنزانة في ذاكرته، وعندما وصل بدت في ذهنه كمعبد (القليس) يحجُّ إليها كعبة للحرية والتّحرر، ولم يشعر حتى وجدهم يحملونه على أكتافهم.. يهتفون:

– الحرية.. الحرية للمعتقلين.

سمع ســي مروان الصّوت المألوف الذي ارتاحت له نفسه، صوت فارس يطلّ من نافذة سيارة سوداء متوقِّفة على الرصيف:

– أهلا بعودتكَ صديقي.

أنزلوه واتجه مباشرة نحو السيارة، فركب وبدأ الحديث:

– ماذا جرى للزعيم؟

– سيحوّل ملفّه إلى المحكمة... ومن الممكن أن يواجه حكما بخمسة عشر عاما على الأقل في نظر إعلامهم.

سكت برهةً ثم أكمل الحديث:

– أبحث عنك ولا أجدك، وهاتفك مغلق.. أخبرني الأشعث أنّهم اعتقلوك عندما كنت معها في الساحة.

– نعم..! في سجن منفرد، غرفة القبو الباردة يتناوبون على التّحقيق معي.

ساقه الحديث مع فارس نحو شخص أسود في أسود، اعتدل الاثنان له باحترام كأنّه عاد من (معبد الشّيطان)، فأخبره أنّه هو من أطلق سراحه، ومنذ غادر الزنزانة بدأ الطّقس الحقيقي لجلادة الذِّكريات في رأس سي مروان، وهناك عرف لحظات رعب لم يعرف مثيلاً لها طيلة حياته.

صرخات تدخل الأذن من أروقة مظلمة:

– حي أرزق بينما الكلّ في حضرة الموت.

– المهم أنّك اليوم بيننا، وسنكمل طريق التّحدي سويا.

غطّى الهدوء الحزين كل شبر من عقل سي مروان، فترجّل من السيارة والجميع دائرين به يهتفون:

– الحرية.. الحرية...

في ليلة الاثنين نام سي مروان باكـــــراً متهيئًا لثلاثاء الطّلبة، الأمل في غد أفضل، استيقظ في الصباح الباكر وتركها نائمة، وقد أتعبها معه كثيرا وأرهقها غيابه المستمر. حمل جسده بخفّة وزن الريشة، وبدأ في حثّ الخطى ليرى الشّباب الذين غاب عنهم مدّة من الزمن، فحلّق على أجنحة الشّوق وما إن وصل تجمعوا حوله فاتحين أحضانهم.

ابتسم قائلا:

– هذه الأحضان تكفيني، أحضانكم وطنية، وإصراركم غايته التي أموت من أجلها.

وجد الجميع منهمكين، لافتة في كل يد مواصلة السلمية للحظة الأخيرة، وكلّما رأى واحدا اندفع إليه وعانقه، وبدورهم يسألونه عن أخباره، ويبحثون في غيابه.

يهزُّ رأسه ويتمتم:

– الحمد للّه .. الحمد للّه.

جاء اللقاء يحذو حذو التّطرف، ومن بعيد ظهر الشيخ عثمان الذي أمسك مـــــــرَّة بيد سي مروان في ساحة الشّهيد، مندفعا نحوه بمشاعر جارفة، وعانقه عناقا حاراً:

– ما أخبارك صديقي؟ متى رجعت من السفر؟

أصيب سي مروان بالدّهشة:

– لم أكن مسافرا يا صديقي، كنت معتقَلا، والأمس في الليل تمَّ إطلاق سراحي.

ابتسم الشيخ عثمان قائلا:

– الحرية لا تعتقل يا صديقي، حتى إنْ حاولوا اعتقالها ستزأر أسداً وتتحرَّر من فكي السجّان، فلا تحزن نحن بجانبك إلى غاية التّحرر.

المفاجأة دائما تأتي على حين غرة.. استدعي سي مروان إلى المحكمة كمتّهم، واندهش عندما شاهدها تجلس في مقعد وسط القاعة، تتابع أحداث المحاكمة، تراقب، وتسمع للقاضي.

سيدة رآها عند مدخل الحديقة، أرسلها الأشعث لتتجسَّس أحواله:

– لكن..!

من أخبرهم أنّي في هذه القاعة؟ ولم أخبر أحدا.

عندما انتهت المحاكمة أسرع بالخروج لكنّه سمعها تنادي:

– انتظرني، أريد التّحدث معك؟

انتظرها خارج القاعة واقفا بجانب آلة القهوة، بعيدا عن عيون تراقبه وتتجسَّس على تحركاته، كان يراقبها وهي تتقدّم نحوه وتبتسم، مندفعة اتجاهه متجاوزة كل التّحفظات.

احتضنته...

أحسَّ سي مروان برائحتها العبقة تبثّ في كيـانه طراوة لم يعرفها، ولم ينتبه لمن حوله، خيِّل له أنّها جاءت لأجله، وعندما

رأت السمراء تتبختر قادمة نحوهما، ربطت الرعشة لسانه ونسي انجذابها، وتنازل عن المثالية.

سألته:

– ما غايتك اليوم وأنت ترى الحقّ باطلاً، زخرفت له السبل؟

– لا غاية لي غير الوطن، لكن...

لِمَ سؤالكِ الغريب؟ أنا لا أعرفكِ.

حقيقة.. التقينا مرَّة عند مدخل الحديقة، والمرَّة الثانية في الساحة يوم اعتقلوني.

– أرغب في جعل الحرية يمني وأملي.

وأنتَ ماذا تريد؟

– أريدها عشيقة...

استغربت...

– تجعل الحرية عشيقتكَ؟

كيف ذلك؟

– لا تقلقي، ولدت حراً والحرية أعشقها منذ النّعومة.

ارتاحت لصراحته، فدندنت بصوتها الجميل وهما يغادران المحكمة، مكان أصبح مقر لقائهما كلّـــــما طلِبَ للمحاكمة، يومها ساعات طويلة قاسية مرَّت وسي مروان جاهل لمصيره، احترق بعيدا عن هؤلاء الذين عايشهم وأحبهم، شكّلوا حياته الماضية.

همس متعجباً:

– هـم جزء من طموحي ومستقبلي، ولا أعرف متى سأراهم، ولست متأكِّدا إن كنت سأراهم في يوم من الأيام.

– بسبب ماذا؟

– لأنّني رفضت أن أكون نصف رجل؟ أو لأنّني أردت التّحرر من قيود الذّل والاستعباد؟

–

(٥)

القناع والرمال...

قرَّر ســــــي مروان على غفلة أن يرحل إلى عمق الصّحراء، وعلى الطّريق ارتعبت أوصاله، أطلَّ من نافذة الحافلة على كثبان رملية ينبعث منها البخار، من لهيب شهر آذار، فتمنى لو يمشي عبر التّاريخ راكباً المهرة التي عشقها لتعود به إلى كنف أسطورة المعبد.

همس مستهزئا بنفسه:

– لن تتحقّق الأمنية لرجل مثلي؟

أرهقه الزمـــن، استشهد الكل بينما أقرضته الحياة الأيام، تركت وديعة يأس وتذمر يطِّل عليها مـن نافذة الحافلة، فاكتشف أنّه لا يزال داخل سجن اليأس، تحاصره الكثبان الرملية، يبتعد بخطوات متعاقبة نحو المجهول.

سوء واستياء:

– وهذا يريحهم.. أن يتخلّصوا مني غايتهم، لكنّي.. سأعود وأكمل النِّضال.

في المساء رنّ الهاتف بينما كان ســي مروان في غرفة الفندق، يشاهد فيديوهـــــات نشرت عبر صفحات مجهولة، حملت عناوين لمناطق عديدة لتراب ارتوى بالدِّماء الحرَّة الزكية، ولم تقتنع قوس الشّرق بسفره، فبدأ الخلاف بينهما من جديد.

تصرخ قائلة:

– أنت تبتعد عن رحيق حبي، فتجد أيامك في خانة التّعاسة.

غابت شمس ذلك اليوم المؤرق.. سي مروان منهك القوى وهشّ السريرة، فلم يتحمل الوحدة القاتلة، لذلك خرج من غرفة الفندق ليجدهم مجتمعين، تجمع رضخت له إرادته فمشى برفقتهم، وهم يتعاركون على الصّفوف الأولى ظنًّا منهم أنَّ الأول يتوَّج ملكاً.. ربما يحدَّد كمرجعٍ.

– ليسوا بعدد كبير ...

مجموعة تلتقي كلَّ ليلة في ذات المكان: بقعة تنعدم فيها الحدائق، محيطٍ موحش تحت ظلِّ الغربة الخانقة، يجتمعون برفقة نسائهـــم المتحجبات، وأولادهم من مختلف الأعمار، ولكلٍ طقوسه الخاصّة، وكان سي مروان المتفرج الوحيد في هذه البقعة المعزولة عن الحياة.

مضت ثلاثة أيام وســـي مروان يحاول الاتصال بزوجته، الشّبكة مهترئة وكل شيء يتأثَّر بالسياسة، وبعد عذاب حقيقي جاء صوتها السَّاحر قاطعاً آلاف الأميال:

– لا تقلقي يا عزيزتي، فالوقت في صالحنا، الصّبر فقط هو المفتاح لنبني عشّنا في حضرة حرية هذا العالم الضيق.

– نحن على حدود الاختناق، فلا تكلِّمني عن الحرية يا عزيزي.. المسألة أعقد مما تصوّر.

واجه سي مروان الفراغ بين جدران غرفة الفندق فقرر العمل.

بعد أيام وجد مكسباً للرزق في ورشة بناء، ولم يجد من يستهلك جهده ووقته إلا ذاك الغبار، يتعفر به من فجر اليوم لغروب شمسه، فيغسله مساء ليرتاح.. حقيقة يهذي من التّعب، والحياة تسير ببطء شديد.

حاول إلهاء نفسه بقراءة المنشورات التي تكتب على صفحات كانت في الأمس القريب تنادي بالتّحرر، لكنّه عجز عن ربط الأحداث، فوجدته في سهو التّفكير يعانق اليوم في بدايته، متّكئاً على عمود كهرباء ينتصف رصيف الشّارع الخالي من المارة، والشّمس عانقت السـماء بحرِّها الشّديد، والعرق يتصبَّب من جسمه فتلتصق ثيابه بشعيرات صدره المختنقة.

ابتسمت قائلة:

– صباح الخير سيدي، أنا حورية.

– أهلا وسهلا سيدتي، وأنا سي مروان الثّائر.

– الثّائر! ضدّ من أنت ثائر، وأراك تتّكئ على هذا الجامد الذي لا يتحرك؟

– القصّة طويلة سيدتي، لابد لها من وقت لكي أقصّها.

– سنجد لها وقتاً سيدي...

لابد أن أعلم لم أنت ثائر وحائر؟؟

امرأةٌ، سمراء البشرة، نحيفة جريئة، حدّقت في وجهه إحمرَّ خجلاً، لم تجد ما يلهيها، وما يبعدها عن الوحدة، بحثت عن شخص تقضي معه وقت الثّرثرة:

– لم أنت حزين هكذا؟

– الحزن والفرح توأمان لنفس الجريمة.

– الحياة رواية جميلة ...

رواية لابد من قراءتها حتى النِّهاية، ومن الخطأ التّوقف عند السطر الحزين، وقد تكون النِّهاية جميلة، فلا يمكن منع طيور الحزن من أن تحلِّق فوق الرؤوس.. فقط تمنع من التّعشيش فوقها...

نحن اليوم نحاول منع تعشيش الأسى في نفوسنا.

– كلانا يعلم أنّ الحال لا يحمد عقباه. قالت حورية السمراء في حسرة وأسف.

قبل انصرافها ترجّت سي مروان قائلةً:

– أرجوك أن تزورني في مكتبي.

كتبت العـــنوان على ورقة صغيرة وقدَّمتها له ثم انصرفت، ومع الأيام أصبح المكتب مكان لقاء قضيا فيه الساعات معاً، وتبجَّحت أمامه بالتَّفتح والتّحرّر فرآها قردة شذَّت عن نظرية (داروين).

بينما سي مروان في الصّحراء القاحلة الجرداء، زاره صديقه فاهد فجلسا في مقهى الشّاي، أمضى عشرة أعوام من عمره شبح الصّحراء، غادرت الألفة وجهه، ولدته في الأخير ثعلباً ماكراً، يبحث عن الفيء ليختبئ في حماه، هروبا من لدغة الحرِّ، ونظراته حديث ينصب الشِّباك للمرأة السمراء، وحين غادرت سأله سي مروان مستغرباً:

– ما سرّ اهتمامك بها؟

– ببساطة، لأنّها جميلة.

– حقّا..؟!

بدأ ســي مروان يفكِّر بعكس قناعة أعدَّها لمواجهة النِّساء، رسم لكل امرأة نكهة خاصّة، وحورية السمراء رقيقة

فاتنة، حين غازلته تضرَّج الأحمر على خدَّيها نقياً، جذبه للاستكانة، فأشرقت الشّمس من وجه السمراء، وتألّقت النّجوم في نظرتها وسي مروان يسأل:

– ما السرّ في سحر وجهها الأسمر؟ لن أشبهها بالورود وأعطي الفراشات حقّ تقبيلها.

اعتقد أنّها لا تملك ما يثير شهوة التّمني، نحيفة دون أرداف ولا صدر يحرِّك النّشوة، وفمها توسَّـــــع على شفتين، ضحكت فقالوا: ألا تحتشم؟ وبكت فقالوا: ألا تبتسم؟ وصوتها الرخو لو صمتت قالوا: كليلة اللسان، وإنْ نطقت قالوا: رخوة الكلام.. غير متحفّظة...

حقيقة ...!! نظرات لم تتوجها كامرأة بقدر ما رأوهـا عضوا أنثويا، سخّر له الجسد لخدمته، شعر سي مروان بها لبؤة تَهم لافتراسه، فأفزعه الأمر ودفعه لمقابلتها بجفاء وعنجهية واضحة لكنّها.. لم تتراجع قيد أنملة عن تصميمها.

أقرَّ لها ككل مرَّة:

– تعلمين سرّ ضعفي، لذلك أرسل لك مراسيل مع فراشات شـــوق تغازل نسائمك النّاعسة في كنف العشق، كل صباح وكل مساء.

– سرَّ ضعفك، كوني العدد الجديد من الحلم القديم؟ فأنا حورية السمراء أيها الثّائر.

مساء أعدَّ فاهد مفاجأة لصديقه سي مروان، حيث زاره في الفندق وأقلّه إلى بيته، لتناول عشاء أعدّه على باب متعة لم يجدها سي مروان في غرفته، فخرَّ للأمر وألقى الدّنــيا بعيدا من وراء ظهره، وعند عــودته إلى غرفته اشتعلت نيران جهنم، وفـوق السرير اختلى بجسده وأفرغ التّوتر من داخله، لتهدأ أعصابه تارةً وتعود للاشتعال من جديد تارةً أخرى.

يفكِّر في حرية السمراء، فطالت الأيام وقصرت المسافة، بينما كان يهمس لجدران غرفته متذمراً:

– لا يبدو أنها ستنتهي.

جلست قوس الشّرق لوحدها، منكمشة على نفسها تفكِّر في همٍّ طال لأمد، وحين وصلتها رسالته، فتحتها وقرأتها باهتمام والدّموع تنهمر حارةً على خدّيها الحمراوين، وتحت نظرات أرسلتها سهاماً مسمومة، شعرت بالحرج وتمنّت لو انشقّت الأرض وابتلعتها حيّةً، فصرخت في وجه مرآة نظرت فيها:

– ماذا سأفعل...؟ أنتظره ليمدّ لي يده وينتشلني من همي، ولكن الأيام تتبنَّى الألم والغربة، فالكل يسألونني نفس السؤال:
متى سيعود ...؟ ولا أجد إجابة.

صدّ سي مروان رغبته نهاراً وعرَّاها ليلا، لتلعب كما تشاء بأقدارها المجلجلة، وضحكاتـها مخدِّر سافر محلقاً به إلى آخر الدّنيا، هارباً من مخلبه مع طلوع فجر جديد، فتوتر أكثر من يوم انقضى، فأصبح أبله يراقب ولا يقترب.

مع حرارة آذار اشتعلت النّشوة ونهشه الهوس، منجذباً لحلم حقيقي أفلت الواقع من بين يديه كومضات برق لا تنتهي، فخيِّل له في الأول بلوغ شاطئ الأمان، برغبة دفعته للتّمسك به والتّخلِّي عن كل شيء، فيسأل محتاراً:

– هل هي مثل ...؟ تمتثل لجفوة الصّحراء واستبداد الغريزة ونتفق على التّمسك بالحلم رغم كل شيء؟

عاشت حياتها وعاش حياته، جمعهما الحلم متأبطا ذراع حورية السمراء يزيح الطَّرحة عن رأسها، قبَّل جبينها وضمَّها بحنان الدّنيا إلى صدره، فغاب في عالم اللذة هامساً لها يائساً:

– أتمنّى أن تنجبي طفلة جميلة مثلكِ.

– أريد لكَ ولدا ذكيا قوِّي الإصرار يا سيدي. تجيبه مبتسمة.

– سأسميها: فرح...

أسمعها أنغام التّحرر لأنّني أريدها حرَّة، وحقيقة أنا رجل شغوف بالتّحرر أصنع منه نجماً من ذهب المغامرة.. ولا أدري السبب.

نشأ سي مروان في بيئة الثّورة والتّحرر هبة الرحمان، وأمه وعدته منذ الصِّغر بقيادة الأفق، ينغلق حده عند الحدود أمام عيونهم، فأقسم بالسعي في سبيل الفرح لآخر يوم في حياته.

ابتسمت حورية السمراء قائلةً:

– ربما السبب من ردَّة فعلك..

محاولتك لأن توفِّر لنسلك ما حرمتك منه الأيام الغابرة.

مرَّت الأيام وسي مروان يحاول الاتصال بقوس الشّرق دون جدوى، دفعه الشّوق للخروج من غرفة الفندق مسرعاً باتجاه مركز البريد، لكي يرسل لها برقية عاجلة، وعندما خرج فاجأه صديقه فاهد عائدا من زيارة أحدهم، فأقلّه بسيارته إلى الفندق.

جلسا في الصالة يحتسيان الشّاي.

رنّ جرس هاتف الفندق فرفعت مضيفة الاستقبال السماعة لتجيب:

– الو، نعم، موجود.

نادت المضيفة على سي مروان وناولته السـماعة، ففاجأه صوتها، تضع فاها في أذنه وصوتها ذاب في جوارحه تاركاً صداه يرتدُّ في داخله حتى نهاية الاتصال.

نائما يهذي ويهلوس:

– نطقت فرح تتهجَّى اسمي...

وضعت الأيدي على القلوب راغبة في الحياة، فتمنى سي مروان عدم اهتمامها بالسياسة العقيمة، وحلُم أن تحمل السلم قلباً بقلب الحياة، فتكون حرّةً بعيدة، لكنّه خائف من تمردها إن فرض عليها مسارا محدّدا لحياتها، وضعها في حضنه وقبَّلها وكان يتمتم قائلاً:

– تكبر قليلا وأعلمها الشعر، أريد لها أن تعيش حياتها.

رآها سي مروان في حلمه تحاول الوقـــــــوف على قدميها، تجوب زوايا البيت وتصفِّق بيديها.. تتحدّث بلغتها...

– يا لكِ من بنت أبيها..!

غمرته الرغبة فوضعها في حضنه، دفّأها بحرارة شوق اللقاء فسقطت دموعه ساخنة تلتقطها الوسادة، وعلى وقع حرارتها استيقظ من حلم تجسد في ليلة من ليالي التّحرّر متأوِّهاً:

– اه لو يسمح القدر بهذا...!

اتكأ سي مروان في جوف ليلة عجفاء، وعلى وسادة تبلَّلت بدموع الحلم سائلاً نفسه دون جواب أقنعه، فتزعزعت الثقة في قلبه طارحة أسئلة عن فرح وولادتها، وعن الحلم والرواية:

– هل فرح تعرفني وهي في عالمها، ولم تلد بعد، لكي تتهجَّى اسمي..؟ إنّها ترى من موطنها راية النصر مرفوعة.

لقاء السمراء على أنغام عشق ولد بين الحرية والتّحرر، في مكتبها كالعادة روى لها حلمه بفرح، وهي على كتفه يجوب بها الشّوارع، سمع صراخها واقعاً في أذانه كلمات غير مفهومةٍ.

تلك اللّيلة، حلـــــم سي مروان أنّه معتقل في سجن كقبر الحياة، وقوس الشّرق واقفة من وراء الزجاج تنتظره، فضرب بقبضته على طاولة الحلم والتّمني قائلا:

– أريدها في حضني، حدّثيني عن هذه الصَّبية، فهل تحدَّدت اتجاهاتها...؟

فتجيبه يائسة:

– تشاهد باهتمام غاية الطّلبة والسلمية، فبالكاد أتمكن من منعها عن الخروج إلى الشّارع.

ظهرت قناعة ســـــي مروان لتغيير مسعى الحياة البائسة، فوجدها أنثى صارمة عنيدة، تضغط على عجلة أحلام، فتغيرها في حلمه وتعمَّدت على أن تقزِّم طموحه

وتقلّص أحلامه، لكن استمراره ثابت، ومع عناده يمدّ بيده ويمرِّرها على رأس فرح قائلاً:

– كبرت وبدأت تخطِّط لمسار حلمها.

انتهت الزيارة، فالوقت يمرُّ بسرعةٍ، كالسيف إن لَم تقطعه قطعك، وقبل أن تغادر فرح وأمها، رفعت يدها ببراءة الحلم راسمة علم النَّصر، رفرف في حلم استيقظ منه سي مروان على وقع صوت فاهد، صديق الوفاء، ينادي من وراء باب غرفة الفندق، يطرقه كالسجّان الذي كـــــان لا يتركه ينام في حرية، فيتنهَّد:

– آهٍ ... لو لم يوقظني! كنت سأفعل أي شيء من أجلها.. من هذا الثّائر.. والراية على منشور تحرّر في الفساد...؟

لم تولد فرح بعد، لكن فاهد قتل الحلم، حبيبة من شدَّة جمالها رآها الكل إلهاً يعبَد، قدسُ أقداسٍ لا تلمس جدرانه إلاَّ للبركة.

غازلها ولهاناً:

– أشتهي منكِ قبلة.

– سآخذ قلبك وأرحل، لكي ألدَ لكَ خليفة.

– لماذا يا حبيبتي ظلُّك غرب الطّموح؟

كلام سمعه، ولا يعلم من كان يخاطبه...

كان الوقت ظهرا عندما غادر سي مروان الفندق، وبعدما دفع المستحقّات، ركب الحافلة، برفـقة مجموعة من الشّباب، سارت بهم ببطء على طريق ترابي زخرفته حفر لم تجد من يردمها.

وصل صباح يوم جمعة، فاستقبله ظلُّه بابتسامة، وتناولا الغذاء في مطعم متواضع، ثمّ خرج سي مروان للجلوس تحت شجرة تلذّذ في ظلِّها بالجوِّ النّقي، وعيناه تتحرشان لأعلام مرفـــوعة في السماء، ولافتات جابت الشّارع تحسباً لانطلاق السلمية.. أصوات ترتد بين الفينة والأخرى.

مكث سي مروان قرابة الساعة على حاله، حتى مرَّ بقربه شاب رافعاً لافتة: "من يقوم بنصف ثورة كمن يحفر قبره بيده "، يمسكها بيده كعرق جاف يمدّها بالثقة.

ألقى عليه التّحية:

– السّلام عليكم.

– وعليكم السّلام ورحمة الله.

– قمْ لحراكك، فالوطن لنا جميعاً.

طأطأ سي مروان رأسه:

– صدقت يـــــا بني، فالوطن لنا جميعا، وأنا لي فرح، رسمت بيدها علم النّصر، فلن أخذلها أبدا.

تبادلا أطراف الحديث فأيقن أنّه لا يعرف الخوف، وقد كسر اليأس روحه ودمرَّ الحقد داخله، حتى أضحى بتلك العصبية، ينفجر في وجه أشـــــخاص من جماعة استباحت الباطل، ودنّست حقوق الشّعب الأبي.

سأل سي مروان الشّاب قائلاَ:

– ما اسمك يا بني؟

– اسمي لا يهم ما دام أنني أحمل الأمل في التّحرر من قيود الذل والاستعباد، وأنت من تكون؟

– يعرفني السحاب، والشّمس تشهد لنبلي.. ثائر منذ زمن في سبيل أن أنجب الفرح، وأكتب رواية تحضنها أيام حورية السمراء.

– حورية السمراء...!! من هذه التي تتحدّث عنها؟

– السمراء يا بني ... أميرة حرة.

ملكت روح طفولة أمة تشدو للتّحرر، وثقافة عين مسنَّة نظرت لها مصغَّرة، طاهرة طهارة مريمَ، وفصيحة فصاحة لسان صحَّ الأعجمي لحروف كتبـــتها، بقلب نقي وروح مرحة، ولا يمكن أن يحلم بشيء أكثر من ذكراها في انتظار

شيء قد لا يأتي، وموج البحر يأخذ سي مروان إلى حيث لا يدري.. فهل ستأتي مع سفن فجر رست في مخيلة سي مروان؟

رحلت عيناه تجوب المرافئ بحثا عنها، ولم ينفع الشعر ولا الشِّعار محاولاً استعادة ذكراها، لعلّها تنفع رجاءه الجاحظ العينــين، فلا نية للقلب في النّسيان، ولا ينفكّ القلم يكتبها حباً، فامتلأت دفاتر الأحـــلام بالكلمات المذبوحة على أوراقه، والأحمر القاني قائلاً:

– هذه هي حورية السمراء.

– وهل هو دمها...أم هذا دمعك أيها الثّائر...؟

– لا أدري، وكلماتي لا يقرأها سواي.. إن متُّ فلن تموت مع الزمن، لا أزال أبحث عنها في روايتي.

انقلبت الأمور مئة وثمانين درجة منذ الأيـــــام الأولى للسلمية، فتنصّلت الحياة من الجميع، وتبدَّدت أحلام الشّباب الذين كانوا يبحثون عن التّحرر، أحلام شباب أرادوا العيش في كنف العدالة، فبدت الأحلام بعيدة المنال بمعادلة العيش في الخيال لو لا لمسة الظِّل، لوغاريتمية الخيال وصدى الماضي في انتظار قطار رحل سريعاً.

انتهت السلمية فأسدل الليل ثوبه الأسود، دخل سي مروان بيته على غفلة، ولم يخبر قوس الشّرق بعودته من سفر لم تكن على قناعة به، وعندما فتح الباب رآها في الغرفــة تغطُّ في

نومها العميق، وصوت التِّلفاز يخترق الباب، فأطفأه وتمدَّد بجانبها دون إيقاظها، ورجع إلى البدايـــــة في حلمه، يقرأ وسلطة التّحرر تشنقه، حيٌ تحدَّى الموت، واليأس يحفر على جدران حلمه، فسأله الأمل:

– هل تعرفتَ على فرح؟

– فرح!! نعم ربما أعرفها.

– ماذا تقصد بربما؟

– دعني أفكّر قليلا.

بدأ يتذكّر فـــــــرح، حملها على كتفه وجاب بها السلمية، وهي تصرخ بكلمات غير مفهومة، تحوّلت الآن إلى حلم يراوده، تمنى أن تطرق عليه الباب فيجدها امرأة في منتصف العمر، وعلى جبينها المتحرِّر علم حرية مطرزٌ بخيوط الشّجاعة والشّهامة.

أيقظته زوجته متعجبةً:

– متى دخلت يا رجل؟ لِمَ لَمْ توقظني؟

– دخلت ووجدتك تغطِّين في نوم عميق، فلم أرِد إزعاجك، لكنَّك أزعجت حلمي الآن وهربت مني فرح.

ابتسمت قائلةً:

- لا يزال فيك الشّغف بفــــــــرح، تهذي بما ليس بين يديك، والأيام عاقرة على أن تلده حقيقة تراها، أنت تناضل من أجل حورية السمراء، تشتهيها شهوة قهوة الصّباح.

نهض وعانقها قائلاً:

- إنّهَا فرح .. فرح .. فرح...

شعرت قوس الشّرق بابتسامة سي مروان تتسع، وهو يلفّ ذراعه حول رقبتها مانحاً لها قبلة فوق وجنتيها، وهتف من أعماق قلبه قائلاً:

- الفرح من إصرارك والسمراء منك ثناء، هلاَّ شغلت التّلفاز لأشاهد الوثائقي الذي يبثُّ عن (نيلسون منديلا).

هزَّت قوس الشّرق كتفها وضحكت:

- ألَمْ أقل لكَ أنَّ مداعبتك باردة؟ سأشغل لك التّلفاز وبعدها أدخل المطبخ لإعداد القهوة.

نهض فوجد زوجته تسكب له فنجان القهوة وأصابعها تلتفّ حول فوهة الكوب حتى امتلأ، ثمّ أعادت الكرَّة مع الكـــــوب الثاني، وأضافت ملعقة من أبيض في كل كوب، وما إن ارتشف سي مروان من كوبه حتى صرخ متذمراً:

– ما هذا ...؟

منذ متى نشرب القهوة بالملح؟

أسرعت بكأس من الماء وهي تعتذر:

– أعتذر منك فشوقي وفرحتي لعودتك جعلتني لا أفرق بين الأبيضين: سكّر وملح.

شرب كوب الماء كاملاً ثم ابتسم قائلا:

– لا مشكلة عزيزتي.

جلس سي مروان في البيت إلى تمام العاشرة، وبينما استعدّ للخروج سألته زوجته قائلة:

– إلى أين أنت خارج؟ لم يمض على دخولك إلا ساعة واحدة وتريد الخروج ثانية؟

– هل نسيتِ ...؟ غدا عيد الثّورة.

– وهل يمكن نسيان هذا التّاريخ؟

إنّها ذكرى إن لم تكتب يختفي الحبر من الكتب يا عزيزي.

رنَّ الهاتف فجأة نافضا حورية السـمراء بقية لآثار الحلم، فسردت أخبار صحراء غادرها منذ يومين، ومكتبها جمَّده غيابه.

متذمِّرة تشتكي الوحدة:

– سهل عليكَ أن تقول أنّي غير موجودة عوض أنّي موجودة وغير مرغوبة، تجاهلتني تماماً، ولم تخبرني أنّكَ مغادر، فالعزلة شيء جيد وسيء في ان واحد.

– يمكنني سماع صوتكِ، تنادينني عندما يصمت العالم في فجر كل يوم.

عبثت الكلمات بالعقول، وامتلأت الصّدور غيظاً، منتزعة من النّفوس نشوة الخروج، فرجع سي مروان إلى البيت.

فتح الباب ثم دخل فلم ترفع قوس الشرق عينيها، ولم تبد أي ردّة فعل على الإطلاق، كذبـــــابة حلّقت في فضاء متقوقع، فاستبد به الغضب لكنّها أسرعت نحوه قائلةً:

– لماذا رجعت هكذا مكشِّرا؟

– لا شيء سوى أنني أريد البقاء في البيت.

جلس في غرفة الجلوس يحدِّق في لوحة معلَّقة على جدار الغرفة، لوحة تجسد فيها يوم ربيعي جميل أشعره بخروج فرح للنّزهة، فتمتم قائلا:

– تودُّ الظّهور لكنّها لا تحتمل الألم.

رأى عبر اللّوحة أمها تصرخ ككل النِّساء على يقين من كسب المعركة، وبعد لحظات قليلة انزلق بسلاسة بالغةٍ، ثم انفجر بالصّراخ:

– اتركيها تولد بسلام.

دخلت قوس الشّرق مسرعة فوضعت يدها على جبين زوجها سي مروان، تمسح عرقه الذي تصبَّب من شـــــدّة الغضب واليأس، ونسي آلامه.

هدأت زوجته، ثم سألته مستغربةً:

– ما بك؟

– خيِّل لي أنني أراها، وأستطيع أن أتحدَّث إليها.

(٦)

أخطر مهمة...

المهمّة شبه مستحيلة...

ترجَّل التعجيز ينطُّ وثبت القط الطَّائر، حينما طُلِب من سي مروان تنظيم شبكة وتوزيعها على السّاحات التي تنظَّم فيها السلمية، لزرع الوعي وجعلهم على صلة مباشرة بقائدهم، فسافر مرَّة أخرى إلى الصّحراء، وعندما وصل توجّه مباشرة للقاء حورية السمراء في مكتبها، وقد أخبرته.. أنَّه قطب جامد لَمْ يشعرها بالأمل في غيابه الطَّويل.

دخل المكتب ووقف ينظر في المرآة، وإذ برجل مرهق تهدَّلت كتفاه، فــــوق قامة طويلة لم تعد منتصبة كعهدها، سجن بداخلها ينظر إليه، وكأنّه ينتظر منه شيئاً عجز عقله عن إدراكه، فهمس قائلاً:

– اطمئن، أنت تحتفظ بجاذبيَّتك، لن تنكسر كالآخرين..

فأنت الثَّائر.

استدار سي مروان يحدِّق في وجه السمراء، تجالس الابتسامة على كرسي تحتضن هاتفها بين كفيها، وتحدِّق إليه بعيون عابثة مبتسمة.

همَّ بسؤالها:

– لِمَ أنتِ حزينة هكذا؟

فأجابته بسؤال آخر، وهي تريح ظهرها إلى الكرسي:

– ألم تخبركَ جاسوستكَ التي كنتَ تنظر، وتتباهى في حضرتها؟

– أريد أن أسمع منكِ أنتِ.

– اليأس يطاردني...

– اطرديه ولن يعود بإصرارك. قال لها مستهزئا.

اعترضت قائلةً:

– لِمَ أطـــــــرده.. وأنا أحتاج إليه لجعلكَ تقترب مني، وتكونَ بجانبي؟

أرادت أن يكون سي مروان نسخة منها، وأن يحشو رأسه بأمل ضائع على سطح قمر استوطنه المتعطِّش، يركض فوق كرامته وكرامة المتحرِّرين.

سكت لبرهة ثمَّ قال لها مستنكراً:

– بالفعل للبشر ذنب، فقد دنَّسوا الكرامة على سطح القمر.

طأطأت رأسها معاتبةً:

– ألا تريد أن تتحرَّر كما تحرَّرت فرح؟

ولدت الغرابة على طبق من سؤال:

– فرح...؟!! متى تحرَّرت ولم تولد بعد؟!

انقلبت الأمور، ولم يحدث ذلك منذ البداية، وفي حضور السمراء تنصَّلت الحياة عن الحتمية وجمعت الأحلام، التي تبدَّدت في مهمَّة البحث عن اللذة، عاشها سي مروان بين الخيال وصدى الانتظار، ولم يتخيَّل أنَّها تحرَّرت بهذه السرعة.. كيف يكون تحرُّرها مادام هو يراها في الأحلام أمنيَّة ورواية لم ينه فصولها؟

– صدِّق أو لا تصدِّق، فقد ولدت بلا فواصل ولا نقاط.

قالت السمراء.

مجتمع لا يعترف برجولة بلا أطفال، والرُّجولة ليست كلمة توحي بالمذكر، وإنما هي الشَّهامة والأخلاق والمواقف البطولية والإنسانية، ومن لا يجد في نفسه الشَّجاعة الكافية للمخاطرة لن يحقِّق شيئاً من حياته.. فما هذه الحتمية والفلسفة العقيمة...؟

رجولة تقاس بعدد الأولاد، في مجتمع لا يملك حرية التعبير عن أطراف حديثه، وكلما زاد عدد الأطفال ثبتت فحولة وقوة

الرجال فوق الأسرَّة، فتذكَّر سي مروان صديقه الجاحظ العينين متحمِّسا يصرخ في وجهه:

– لا أنصحك بصداقته، إنَّه مجنون مفصوم الشَّخصيَّة...

زير نساء.

غُمر سي مروان بشعور صديقه فاهد، فسقطت الرَّغبة من كفِّ يده على الأرض، وفي منتصف سباق التّودد لكسب قلب حورية السمراء، مدَّ سي مروان يده يدلك موضع الألم مشيراً للسمراء بسبَّابة يده الأخرى محذراً:

– سأصل إلى غايتي ولا أريد المزيد.

سقط سي مروان من بطن أمه، مستدبراً الدنيا ومستقبلا الآخرة، ضحك لها والدنيا ضاحكة له، فبنى الحظ له طريقا بلا عمد، وحورية السمراء تنظر في صورته على شاشة هاتفها وتتمتم:

– غضبٌ وعصبيةٌ، ألمٌ ...حزنٌ.

– ماذا تفعلين؟

– أحلِّل وجهك على طريقتي.

– لست رجلا جيدا بما يكفي، لكنَّني أبذل قصارى جهدي لأكون كما تريدني فرح.. أنجب وأكتب...

وسِرُّ النَّجاح في الحياة كنزٌ.

مواجهة المصاعب بثبات الطَّير في ثورة العاصفة، والإخفاق بشرف أفضل من النَّجاح بالفشل، والسمراء لم تفشل، ركّزت فقط على شاشة هاتفها جاعلة أعصاب سي مروان تنفجر في رأسه، وهي تجيبه مستهزئة:

– إذن أنتَ في سعيٍ للتزاوج، ولستَ في موسم التّحرر؟

كظم غيظه قائلاً:

– لم تخبريني أنَّكِ من زمن تلك الفهود..

فكم عمركِ...؟

ابتسمت قائلةً:

– يجيب الكثيرون على هذا السؤال إجابة خاطئة، فلو أحببت أن أُخطئ مثلهم سأقول: ستة بعد الثلاثين، أمَّا إن أردت قول الحقيقة: عمري من حجم الآلام والأحزان.. صدقني لدي نقص في حظّ السعادة...

ألن تذهبَ إلى فندقكَ كالعادة...؟

الهروب من المتاعب لا يذهبها، وبغض النظر عن طرف الظِّل الذي وقفت حورية السمراء فيه، عليها أنْ تواجه

الحقائق، وأصابعها موجهة للذّاكرة بوقع مناقض لاختلاف أسلوبها لمواجهة سي مروان، لذلك أغلقت نافذة الحوار في وجهه راغبة في التهرُّب، متظاهرة بأنّها أنثى مختلفة، قضت كذبة معه ثمَّ هجرته.. يعرفها مراوغة وكاذبة.

– لن أغادر لأنِّي قرَّرت البقاء هنا اليوم. قال سي مروان.

– هنا؟ أين..؟!

هذا مكتب وليس فندق للثَّائرين.

– أنتِ حرية وأنا الثَّائر، وفندقكِ هو الملاذ.

وجدت النّفس الكئيبة الرّاحة في الانعزال، والانفراد هاجرة النَّاس مبتعدة كغزال جريح يتوارى في الكهف حتى يبرأ أو يموت، وحورية السمراء تطأطئ برأسها معلنة النَّفي والحضور.

الحياة حتمية، والصَّبر القليل تعلَّمه بمقامه سنون المحن، وأجمل رسم رسمه سي مروان بريشة الأيَّام، جسراً من الأمل قاطعاً بحر اليأس والإحباط، فمحبوب اليوم مكروه غداً، والشِّتاء بداية صيف يجعل الظَّلام بداية النُّور، والضَّغط بداية راحة لنجاح بعد الفشل الذَّريع.

أسند سي مروان ظهره جيدا إلى الكرسي ثُمَّ سألها:

– لماذا لم تتزوّجي حتى الآن، وقد فاتكِ قطار الثلاثين...

أليس كذلك ...؟

أرقُّ عبَّأ العيون، وأنينٌ في صمت لم يشعر به أحد، إحساس عايشته حورية السمراء دوَّن اسمها عانساً، ولا تزال تحلم في اللحاق بالقطار المتعجِّل، فامتزج الارتباك بالضيق في عيون السمراء من سؤال سأله سي مروان في رغبة التّمتع، فأجابته بعد تردُّدٍ:

– تزوَّجت ثمَّ طلقته.

– لا تزالين صغيرة، فلماذا لا تتزوَّجين مرَّة أخرى؟

صمت وسكون، وحورية السـمراء تربت على يد الجود كناية، وتعلَّمت أنَّ الكلام دواء، إِنْ قللت منه نفعها وان أكثرت منه قتلها، والسُّكوت صديق لم يخنها أبداً، فكانت تداعب خصلات شعرها المنفَّر خلف أذنيها قائلةً:

– عندما تتزوّج المرأة تبحث عن رجل متفهِّم يشاركها الحياة، فتجد ذلك في نظرة حبٍّ أو لمسة شوقٍ، لكن المرَّة الثانية بعد تجربة مريرةٍ، لا تبحث سـوى عن الحبِّ، لكنَّه للأسف نادر.

ولد الطّبع البغيض لدى سي مروان، فأراد معرفة كل شيء عن حياة لا تخصه، ولم تكن تعني له سوى شهوة تحرُّره من قيود الأيام، وسواد المحن التي عصفت بأمّة تمنّت الحرية فوجدها تعيش في دوامة عائمةٍ.. إنّها الحرية السجينة.

نظر سـي مروان في حورية السمراء نظرة فضول واستفهام، يعرف جيدا ألم الوقوف وراء النَّافذة في انتظار الإرث المقسوم، والاطمئنان مرَّة تلو الأخرى على أشياء لا تزال هناك في الخارج، لم يمت بعد لكي يفتقدها، ولكنَّه شعر بمرارة حلقها تنتقل إلى حلقه وهي تحدِّثه بحزنٍ:

– الرّحمة يا اللّه! تعِبت من عبء الدُّنيا، ومرارة الوحدة تقتلني في اليوم ألفَ مرَّة.

الحياة جميلة بألوان سهول اخضرَّت في عيون السمراء منذ بداية السلمية، وبحار زرقاء اللـون غازلها المرجان فاتحاً مجالسها، عذبة بعذوبة دروس قدَّمتها لها الضَّرورة متكاملة بين الطَّبيعة والأشخاص والجمال، فالكثيرون قرأوا الحياة بالأمـل وسعادة لفرح، والسمراء قرأتها بالبؤس والحزن، فولدت الأفكار من عقل سي مروان المتقدِّم ليعيشها برفقة الأجسام المحفوظة، فلا قيمة لحياته إلا إذا وجد شيئا يناضل من أجله.

أخذ يفكِّر في حديـثها وهي تستنجد بالله من مرارة الحرمان، وفجأة نهض بعدما سمع وطأ كعبها يرتدُّ على أرضية المكتب، وصوت الباب يغلق، وقف يحدِّق عبر النَّافـذة في

السُّكون، يلفُّه ظلام سجنه في لُبِّ ذكرى مشوَّهة لبرودة ليلة قضاها في الخم، ولا تزال رائحة فضلات دجاج أمِّه تزوره دون دعوة وتصيبه بالغثيان، فتذكَّر حديثه معها:

– أرجوكِ، أخرجيني من هنا..

سأكون مهذبا.

سافرت صرخات الطُّـــــفولة عبر الزَّمن لترتدَّ في رأس سي مروان، وعلى صفحة بيضاء نقشت الدنيا تجاربها، رغبة في رؤية النُّور القابع بداخله، كما لو أنَّها خرجت لتوِّها من فمه لتملأ الكيان غضبا.

وقع الحي تحت رحمة الظَّلام، شبر فقط من الشّارع أناره نور عمود الكهرباء كشمعة تريد أن تنطفئ في صمت عجائبه، وفي غياب ابتسامة الأمـــــل طوَّقتها جيوش السَّواد، وحورية السمراء على ثقة بشروق جديد، يحميه الأسد الواقف أمامها، من مخالب الذئب الخائن، واقفاً تمتدُّ يد غدره من خلفهما طعنات، لم تصب سي مروان ولن تصيبها لأنَّها جزء من حياتــه، ولم يرِد لها أن تختفي، ونور توهج في الظَّلام الدَّامس، لم يسمح لعينيه الرؤية الجيدة عبر نافذة مكتب حورية السمراء.

ثلاثة رجَّال واقفون تحت جنح الظَّـلام كذئاب تحاصرهما، ولا أمل لهما في النَّجاة.

خرج سي مروان من الباب الخلفي وتوجه نحوهم، تشجَّع للتصدِّي لهم وجعلهـــــــــم ينصرفون، لكِنَّه جنى الألم والضَّرب، فانسحبت روحه من جسده، وقد شده أحدهم من شاربه، وأراد نتفه كريش دجاجة من خم أمِّه قائلاً:

– نمهلك إلى غاية يوم غد، وإن وجدناك لا تزال ترافقها...

نقرأ الفاتحة على روحك.

في العفو لذة لن يجدها في الانتقام، عاد فاهد من الثلث الخالي في الثالثة والستين مـن عمره بشهادة الشَّجاعة والإصرار، فبارك له الغد لعودته ظافراً، ميموناً، ولامه اليوم كونه لم يبقَ هناك هدية لنوفمبر وثورته الثانية، لكنَّه تهرَّب عن حقيقته قائلاً:

– ما أحوال ثورتنا والوطن الغالي؟

– لا تشكر ولا يحمد حالها يا فاهد.. ننتظر فرح وحورية السمراء.

بدأت سلمية فبراير فطافت الســــــعادة منفجرة في كل الأزقة، وللسعادة رافــدان أزليان تسقى منهما بساطةً وطيبة، فلا تنكر العلاقة بينها وبين الطَّبيعة، سعادة فتَّش عنها الفلاسفة في شعارات مرفوعة، وهام بها الأدباء من خلال

نصوص كُتبت على فضاءات الأزرق المتحرِّر، والكل تمنَّى نهاية الألم والحدِّ من المعاناة.

في رحبة:

– اصمتوا، لا نريد منكم أن تفتحوا أفواهكم.

أشهر مرَّت، ولا تزال الأحوال على حالها، والأمل يخفِّف الدَّمعة التي أُسقطها الحزن، فكثيرا ما تكون حقائق الحياة مزيجاً من الدُّموع والابتسامات مع المزيد من الأسى والإحباط في أوساط العامّة، والأشعث يتحدَّث بتذمُّرٍ:

– ربما عجزنا عن فعل أيّ شيء بعدمـــــا حاولنا بلوغ غايتنا، لكن لماذا يوافقون على تنظيم هذه المهزلة؟ لماذا نرفضها نحن اليوم؟ ولماذا لا يسألوننا عن رأينا؟

اختفى الجميع دون سابق إنذار، فأصبحت السيدة المرافقة للأشعث دون مبرِّر مقنع لتستمرَّ في زيارة الحديقة المهجورة، حاملة رزماً من أقراطٍ منقوشة، وتنادي بأعلى صوتها، وبرفقتها ابنتها التي لا تزال تداري ظلَّها:

– أقراط.. أقراط .. أقراط...

في يوم من الأيَّام، والسيدة واقفة ببضاعتها أمام باب المستشفى تنتظر خروج المرضى والزوار لتبيع لهم، مرَّ بِها اثنان من هرم القمع، فقهقه أحدهما قائلاً:

– ماذا تفعلين هنا يا امرأة؟

– أبيع لأحصل على ما يسدُّ جوعي وجوع ابنتي.

نظر في الأقراط وهزَّ رأسه قائلاً:

– هل أنتِ مع الثَّائرين؟

– ماذا ... ؟!! كيف مع الثَّائرين؟

– المهم بعد أن تكملي البيع، لا أريد رؤيتكِ هنا.. فهمتِ؟

انصرفت من مكانها منكسرة الخاطر، فشعرت بالعجز لأنَّها لم تتمكَّن من فعل أي شيء، من غير أنْ تمشي وتتمتم:

– آه...لو أرى الأشعث وأخبره بِما جرى !! لكن أين أنت يا أشعث؟ غبت وغاب الجميع، تبخرتم كالملح الذائب في الماء.

وقعت الحيرة مع وقوع كلماتها على وقت سي مروان بمدينة فضية، سرقت من القمر لونه ضياء، ومن الزَّمن أمله: "آهات على مرور السنين"، والأرق يرافقه عائداً بذاكرته إلى صباح الثاني والعشرين، يوم تغيَّر فيه مسار حياتـه، وفقدت الكتب حبر كلماتها، فأضحت الصَّفحات فارغة كبطون قوم جياع، يوم انتفض فيه الشعب بأسره، وانتفض معه سي مروان

هاتفاً بهتافــات، جابت السَّماء وجعلت قبيلته قِبلة للسلمية، والإعلام عارٍ من المصداقيَّة يخطُّ بحروفه التعتيم والكذب.

يصرخ في وجهه قائلاً:

– أصابك طمث مزمن، جعلني أتخبَّـــــط في الضَّياع لشهور، واليوم بدأت بالاعتماد على نفسي لإيصال صوتي وصوت التّحرر.

نشر سي مروان التوعية في صفحات هاجمتها أسراب الذُّباب، ودفعته للوقوع في حرب أهلية، أرادوها أن تعصف بالشَّامخة، وتخطيطهم انهار فجأة، وتدنيسهم كتب التَّاريخ مهزلة على صفحاته، ولم يشهد الوطن الحرُّ مثيلا لها، فأضفى الشَّبح ومن معه أسمى معاني البطولة على ثورة، جاءت ولابد أن يعلم الجميع ودون استثناء.. الخليفة فبراير.

ذباب وسَم مسار التّحرر الفتي بالعار، سلحفاة تسبق نمرًا على طريق الخطأ، ولن يقف المطلب مكتوف اليدين، سوف يكسوها برداء قدسي من جبهة التَّاريخ. ليس العاقل فقط من يعرف الخير من الشَّر، لكن سي مروان قد عرف خير الشَّرين، من الذين لديهم الجرأة على مواجهة الفشل، من طينة الذين يقهرون الصِّعاب وينجحون، ضحك

وبكى من فئة شحذت أظافرها لزرع الفتنة وتقسيم الشعب إلى طوائف عبر شعارات ردَّدوها كثيرا:

– خيانة...!

لن يأتي أحد ويطرق بابكَ ويمنحكَ يوما جميلاً، أنت يا سي مروان لابد أن تطرق الأبواب.

سمع الكثير من الأحاديث، وقرأ العديد ممَّا كُتب ولم يعلم كيف أصبحت في الآونة الأخيرة على هذه الطّبيعة، كيف أصبحت لها أقلام تكتب الفتنة وتدنِّس الرُّموز.

قرأ في صفحاتهم ما يثير العجب، قرأ وضحك، وهيجان الطّائفية هدفه إسقاط العين الجاهلة لسراديبها، وصراخ للوصول إلى منظومة قطعت الطّريق عليها وعرَّتها، كشفتها للعلن والآن تشرف على عملية كشف الخلايا النَّائمة التي زرعتها الطَّائفية في دواليب السُّلطة.

– بعد انتهاء المرحلة سيكون لنا حديث آخر، يقولون لكم الوقت قد تأخَّر والأمور اختلطت عليكم، ولكنَّنا سنقوم بتوضيح كلِ شيء وإعادة الأمور إلى نصابها. قال سي مروان.

مسَّ تدنيسهم تاريـــــخ السمراء وتاريخ أجداد سي مروان، فلم يسلم أي حدث من التّحريف والتّخوين، لكنَّه

ضرب ككل مرَّة بيد من حديد على رأس هذا العبث، وقطع عروق العقول الدَّنيئة قائلاً:

– لا أريدها أن تغذِّي فِكر الأجيال القادمة بالدنس.

أصاب الغضب من أيام سي مروان سهماً، يومها احتكَّ بساعد الحظِّ المُبلَّل بالعرق الخائـــن، والأحمق أسقطه أرضاً، فجاء وجهه شطر السّماء وعلقت بِه آثار بصق قذرٍ مرَّ صاحبه عبر شارع الحرية منذ برهة، فكبَّل يديه قائلاً:

– لقد حذرتك وأمرتك بالمغادرة ولكـــنك لا تريد أن تسمع، إذن سنرمي بك خارج شارع الحرية التي جئت تستوطنها مكراً.

أجلس سي مـروان في المقعد الخلفي للسيارة السوداء، ثمَّ ركب مغلقا الأبواب وانطلقت بسرعة، والسَّائق صمت لم يتكلَّم، فظنَّ سي مروان أنَّه صنم في جحيم امتصَّ من نوافذها حرارة الأتربة، علِقت بوجهه وظهره مشعلة ناراً أحرقته في صمت وهو يسأله:

– من أرسلك إلى هنا...؟ وما الغرض من تردِّدك على هذا المكان والتّجمُّع معها بدون إذن؟

توقَّفت السيارة أمام عمارة مهجورة فترجَّلا وترجَّل السائق وراءهما، ثُمَّ أدخلوه إلى شقَّة وكان السَّائق قد فتح

بابها مسبقا، ثمَّ أدخله إلى غرفة تحوي مكتباً، فأجلسه بعنف فوق كرسي من حديد وتوعده:

– ستبقى هنا، حتى ننظر في أمرك.

دندن سي مروان بصوت غليظ، بكلمات أغنيَّة سمعها وسط السلمية، كلماتها وطنيَّة حزينة تحكي مآسي الشّعب المقهور، فأراد الهروب من ذاته: "يا علي عمار بلادي في خطر"[3].

صرخ في وجهه قائلاً:

– اصمت أيُّها المتشرِّد.

انكمش سي مروان في مكانه وتسمَّر كجذع شجرة عمرها ألفي سنة، فطفا فوق موج الثاني والعشرين من فبراير، فلم يمتثل لرغبته، لكنَّه التفت إليه كالأبله قائلاً:

– أنا أحذرك على أن تصمت ولا تعكِّر صفو عقلي.

أصبح التَّهديد حقيقة، نظرات مرعبة منحته الإصرار فأمسك بعصا لا يدري من أين أخرجها يهدِّد ويتوعَّد:

– إِنْ كنت أصماً ولا تمتثل لأوامري، سأهشِّم عظامك...

---

[3] من شعارات الحراك الشعبي.

ستصمت للأبد أيُّها الثرثار.

خرج لبرهة وتركه برفقة السَّائق الأصمِّ، الأبكم لا يسمع ولا يتكلَّم، وبعد دقائق عاد مع شخص بشعر أشعث، رآه يدخل عبر الباب وينظر إليه بنظراته المضطربة التي لم تمس بداخله موضع الشَّفقة، فتذكَّر ذلك الوجه وصرخ:

– أنت الأشعث؟ لقد تذكرتك.

لم يتفوه بكلمة، اقترب منه وفكَّ الأصفاد عن يديه ثمَّ أشار لهما بإخراجه.

صرخ سي مروان في وجهه:

– لن أغادر حتى تسمع كلامي...

لابد أن تعلم أنَّني مثلكَ أحمل جبلا من الهمِّ والغمِّ، فغايتي التّحرر من قيود الذُّلِّ والاستعباد، وهذه هي أمانة الشَّهيد التي أهديتك إيَّاها في الحديقة.

دنا الأشعث من المكتب وارتكز بكفيه فوقه، ينظر في وجهه وفي البصاق الملتصق عليه، وقدَّم له منديلاً مسح به وجهه ونفض التُّراب عنه، وهذا ما أثار في نفس سي مروان الامتنان، وهمس له قائلاً:

– حتى وإن لم ترِد التَّحدُّث معي فأنا أعرفكَ.

أنتَ الأشعث وأنا مثلك لكنِّي اليوم حائرٌ، لِمَ لا تريدونني أن أقترب من حورية السمراء؟

ابتسامة كافحت للظهور ما بين الحزن من خيانـة اتضحت جليًّا، والدّموع التي ذرفتها العيون في حضور الغرابة، والحقّ اتفق السَّواد عليه، فلم يجب الأشعث عن سؤاله، بل دفعه بيده للنهوض من فوق الكرسي ثمَّ هزَّ رأسه قائلاً:

– مستحيل أن تكون أنتَ المتحرِّر الذي رأيته في الحديقة! هذه خدعة، كيف وصلت إلى هنا...؟

– وصلت كما وصلت أنتَ.

الغياب اتقان، وسي مروان أتقن الحنين، وقف في منتصف الطَّريق عاشقاً حضورهم وخائفاً من غيابهم، فانتفضت الهواجس بداخله باحثاً عن الأشعث أياماً وشهوراً، والسيدة التي كانت تزوره في الحديقة ولا تفارقه تعاني غيابه.. تشتكي مرارة القهر والقمع.

تجاهله سي مروان وتركه في تخبُّطه، ولم يرغب في تفسير الأمر مع كل الطعنات التي وجهَّها لسيدة، وضعت ثقتها في الغياب، قرأته في جرح وأنينٍ في العمق، إنَّها في حاجة إلى أن تعيد اكتشاف نفسها من جديد، وترتيب أوراق روح الأشعث المبعثرة، واكتشاف الوجه الآخر، الوجــه الحقيقي لمن كان لها

سنداً، ووجه الغياب، وقد شعرت بأمـــاني في صدرها ذبحها الغياب، ورسالة الشَّهيد التي لم يحافظ عليها.

دنا الأشعث منه وعيناه تتهدَّجانِ من الانبهار قائلاً:

– مستحيل أن تبحثَ عني؟ لقد تركتها كما تركت كلبي الذي ربطته عند مدخل الحديقة.

غضب سي مروان، وغضبه لم يكن جنوناً قصيراً، وقد سمع من معلمه أنَّ الغضب يفقد الأبجدية، فزلزل الجبل الرَّاسي في صمت بشكل مطوَّر لغضبه الجبان، حتى لا يظهر حزنه، فالحليم لا يُعرف إلاَّ عند الغضب.

توسَّل الأشعث قائلاً:

– أرجوا أن تتحدَّث معي، وتخبرني بما يحدث، فالوقت ينسي الألم ويطفئ الانتقام.

الطّريق قصير جدًّا، وسي مروان علِم أنَّ الحياة ليست طويلة كي يجرِّب كل شيء، ولم يعتبرها قصيرة كي يتذكّر أنّها لا تساوي شيئا.

قصَّة صغيرة تعلَّم منها كي يعيش سعيداً على الرَّغم من قسوتها، فتعلَّم من مرارة الأيام فنّ صمتِ القبور، ولَمْ يفلح توسُّل الأشعث له في فضِّ صمته المدقع، فأتعبته السَّاعات التي قضاها يصارع جهله وقهره، وآخر ما رآه قبل أن يركن

لسكون امتثل لرغبة القدر.. لافتة فوق المكتب:" لا لفتنة التَّقسيم "

تاه عقل سي مروان في حلم محاكمة خيالية، فكان فيها قاضياً يحكم بالعدل والميزان، يجرُّهم إلى مقصلة الإعدام تنفيذاً للحكم، رفعوا التَّحدِّي وأرادوا حورية السمراء لأنفسهم.

يهذي ويتمتم:

– إن تخلَّصنا منهم، هل سنكون بخير؟ نعم بالتَّأكيد، لأنَّ الأرض ستتبدَّل عن بكرة أبيها.. وإن نطق الجماد يغرقنا باللعنات.

اقتحم فاهد حلم سي مروان، فأوقف المحاكمة قائلاً:

– هل أنت بخير يا صديقي؟

استعاد سي مروان وعيه وطأطأ رأسه قائلاً:

– بخير لو أنَّك تركتني أكمل المحاكمة.

نجحوا في تحريك شعاراتهم كونهم كـــــانوا فريقاً ممتازاً، فكيف لفاهد أن يترك صديقه لوحده؟! يعلم أنَّ الرَّاحة في وجـــــود إنسان آخر يمكنه أن يكون قريباً، وإذا كان سي مروان مختلفاً، فهذا يعني أنَّه يمكن أن يكون وحيداً، لا تخيفه تلك المساحات الفارغة التي بين نجوم

لا حياة عليها، تذكِّره فقط بالحديقة والكثير من الأماكن الفارغة في حياته، لكنَّه تعلَّم أنَّه عندما يطول الخريف تسقط كل الأوراق، ولا تبقى ورقة فوق الشّجر، وإن عجَّل بقيت الأوراق تعيق تفتُّح البراعم.

لمس في سي مروان حماس الشَّباب، وأدرك أخيرا أنَّه يطرق مفاصل أصابعه واحدا تلو الآخر في حركة توتر:

– أرجو أن أكون واحداً من أفراد فريقك، وإِن أردت اختبار قدراتي فأنا جاهز.

سقط القناع بين الرِّمال، ولم يعد ذلك الشَّبح الغامض، لكنَّ سي مروان بالفعل في حاجة إليه ليشغل فراغ الفضول، إلا أنه كان متردِّداً كون البداية كانت ألغازً مبهمة، فلم يفهم فاهد كيف لمتشرِّد أن يدير عجلة التّحرر.. فقط وعيٌ وشِفرة.

ركب السيارة برفقة صديقه فاهد، أقلَّه بعد ما خرج من تلك العمارة المهجورة يائساً، تألَّم مـــن وجوه شوَّهت التَّاريخ، وتعمَّدت تدمير المستقبل، بما فيه من لحظات جميلةٍ.
كان تائهاً يتمتم بينما فاهد يقود السِّيارة:

– لن أسمح لهم مطلقا! تاريخنا هو الرَّابط والملاذ الوحيد حتى لا نكون كغبار الخريف، تذروه الرياح الموسمية.

حدَّق سي مروان في فاهد وتنهد ثمَّ حدَّثه وكأنَّه أراد تأييده:

– نحن نفعل ما بوسعنا، أليس كذلك يا فاهد؟

ابتسم قائلاً:

– بالطبع نحن نصنع من دمائنا حبراً نكتب به صفحات التَّاريخ والدَّم سيبقى فوق الورق ولن يختفي..

الدَّم سيف نحارب به التَّزوير والتَّدنيس.

تنهَّد للمرَّة الثانية ثمَّ قال:

– لكن..! لابد من ثمن.

تحدَّث فاهد بعجلة وحزم:

– لا شيء بدون ثمن، ولا ثورة بلا ضحايا.

– دام ذخرا للوطن، إنَّه في خلوته، ولكن وصياه وصلت ونحن لها حاملون، وعندما نشعل النَّار ينطـــــفئ الضَّوء، فلن يفهموا الرِّسالة مهما حاولوا.

– لا نعلم متى تنتهي؟ فحروب الأفـــكار لا تنتهي أبداً، وإن هدأت سطحيًّا فهي كالسُّوس ينخر دون ظهور.

– نعم، صدقت..

نقطة الضُّعف تهدِّم الكيان بأكمله، لست مسؤولاً عن الماضي ولن يسألوك عن المستقبل، فأنت الحاضر يا صديقي، ركِّز على حاضر يبني مستقبل أحفادنا وماضٍ يفتخرون به.

تغيّر انطباع ســــــي مروان، والأشعث لم يعد شبحاً غامضاً، أذهله ولأول مرَّة رآه شخصاً يملك نقصاً وضعفاً كالجميع، ولم يكن ضعيفاً بينما كان يصرخ في وجه السيدة بجنون، يمنعها من دوس تراب الحديقة، وهي تتمتم لطفلتها الخائفة:

– لا تخافي ابنتي...

لم أرَ شخصًا مثله يسبح في النَّهر ويموت عطشاً.

صعوبة ما مرَّ به سي مروان انتظاراً لحدوث شيء ولم يحدث.. انتــــظار مؤلم ومتعب، تمنَّي السيئ أن يكون لطيفاً، ولمرَّات عديدة جلس سي مروان يراقب مدخل الـــــــحديقة، بينما الأشعث يمرُّ دون نظرة لها وهي شاردة، أبحرت على أجنحة أُمنية أن تأخذ سكينا وتقسِّم العالم إلى اِثنين، وتراقب أي ديدان تأكله تحت اللِّحاء.. جلوس على الصَّفيح السَّاخن.

حدَّقت السيدة -شبح الأشعث-في آخر نقطة اتصلت فيها السَّماء بقمَّة الأشجار، فعلق بصرها بنصف سحابة، ونصفها الآخر اختفى خلف أشجار الحديقة، التهمته في صمتٍ.

ابتسمت السيدة قائلةً:

– ماذا لو كانت حقا تلتهمه؟

– إنَّها بخير ...؟ أجابها الأشعث.

– ما الذي تفعله بنفسك يا أشعث؟ ملتفتةً سائلة.

تجمَّد فكر ســـــي مروان في مكانه عندما سمع الحديث، همست له في فزع رهيب، ونظـــــرت نحوه بعيون تدور في كل الاتجاهات، وكأنَّها لا تراه:

– أخاف على صغيرتي حتى من الهواء ذاته، فلا أتحمَّل أن يصيبها سوء، لكنِّي كلما رقدت أحلم بنفسي مدفوعة لأن أعذبها وأقتلها، وأسمع صرخاتها من الألم تمزِّق أحشائي.

زلزلت تلك الكلـــــمات القلوب وأثقلت العيون بالدُّموع، نظراتها ألَم كـــــــــأنَّ أحدهم يمزِّقها من الدَّاخل، وأوصالها تتقطَّع متقلبة فوق نار العذاب، وجسدها السَّليم لا تشوبه شائبة.

صرخت:

– هذه جريمة بدون دليل؟

فأجابها الأشعث قائلاً:

– لا تحزني...! قد وجدت المذنب.

انصرف سـي مروان وفي الطَّريق التقى بالشَّيخ المسنِّ، "صقر" الذي رآه في المكتب عند فاهد بعد غياب طويل، رجل متخلق لم يفهم مواقفه لأنَّه تصوَّف في محراب التّحرر، فبدأت الغاية تتحقَّق وشاعت شهرة النِّضال في كل شِبرٍ، صديق للجميع يحلِّل ويقدِّم أفكاراً يعجز عن تقديمها أغلبية الزَّارعين للفتنة بين الشَّعب، صديق محبوب دافع عنه الكثيرون:

– اتركوه لشأنه، ولا تحاولوا إثارة المتاعب بمنشورات وتساؤلات لا تساعده في شيء، التشرُّد فـنٌّ يملكه عقله، يمكِّنه من بناء السمراء كلها وليس فقط دار للمبيت.

– لا تقلق فكل تلك الصَّفحات التي تزعم نقل الحقائق هي غرف تحقيق، وأصحابها لا يعلمون شيئا. قال سي مروان.

جلس سي مروان في بيته مساء يوم الخميس، شعر بالملل فتناول رواية قد بدأ كتابتها منذ أيام، وحاول أن يكمل الكتابة، لكنَّه اكتشف شرود ذهنه فأقفل الملف، ثمَّ خرج على

عجل آخذاً باب البيت في يده، وعندما وصل إلى مكتبها وقف عند الباب لبرهة متباهٍ بالانعدام، بدلاً من الهلوسة بوجوده غير المرغوب فيه، والعزلة التي سقتها الكآبة الكبيرة جداً، وقد عاش في عالم تمكَّن من رؤيتها فيه تتحرَّك ببطء كعقارب ساعة.

سمع صـــــــوتها تنادي عندما صمت العالم أجمع مساءاً، وفجر كل يوم، وشاهد انهيار العالم أجمع وهو واقف مكتوف الأيدي بلا حراك، مصاباً بالذعر من بيت السَّلام، ولَمْ يجد من يسمع أفكاره، فوحدها حورية السمراء علَّمته الرّزانة.

ضغط سي مروان على الجرس، وفُتح الباب فأطلَّت عليه البنت "فرح" التي رآها تكبر عامًا بعد عام، حتى صارت في عمر المتحرِّرة.

سألها سي مروان:

– حورية هنا...؟

– لا! خرجت منذ الصَّباح ولم تعدْ.

أدرك سي مروان أنَّ الشُّعور بالوحدة هو مجرد إحساس وليس حقيقة، وأنَّ هذا الشُّعور هو سبب الارتباك الذي دفعه

إلى التَّفكير بأنَّه منبوذ فاشل، رغم ذلك أكمل طريقه بعزم حتى وصل إلى مكتب فاهد.

طرق الباب فخرج أحد أشباحه الفتيَّة.

سأله:

– فاهد هنا؟

– لا.. سيِّدي! خرج منذ الصَّباح ولم يرجع بعد.

أكمل طـــــــريقه مستقلا سيارة أجرة حتى وسط المدينة، وعندما وصل إلى المقــهى التي يتردّدون عليها كل مساء. وجد المكان مغلقاً، طرق الباب فلم يجب عليه أحد.

في تلك اللحظة أيقن أنَّهم مجتمعون في الحديقة، لذا قرَّر السَّير مشياً على الأقدام، وعندما وصل وجد كلب الأشعث مربوطاً عند المدخل.. لم ينبح في وجهه ...!! عرف أنَّه منهم وعلى علاقة بصاحبه الأشعث، الذي وجده سي مروان جالساً مع الجماعة في مكان اعتادوا الجلوس فيه.

اقترب منهم مبتسماً:

– السَّلام عليكم، اليوم يجتمع شملنا، فأنتم وطني وأنا من دونكم غربة، تفتقر لضحكات المطر تبلِّل روحي.

(٧)

صباح الجمعة ...

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا.. لمَّة كبيرة أمام دار البلدية، ركبوا الحافلات وانطلقت قاصدة العاصمة، بداية رحلة الألم اليومي وسط السلمية، تعلّم سي مروان أساليب تنكيلهم يستخدمونها لإسكات الحناجر، أساليب كافية لحرمان الكل من لحظات الرَّاحة، حصل عليها سي مروان بـــين الجمع وهو يهتف، وبسرعة وجد نفسه ظلَّ الأشعث، شعر بقدر من سلطة المتشرِّد المفروضة ضده، فقُبض علـــيه للمرَّة الثالثة برفقة الأشعث، وتمَّ نقلهما نحو مركز غير بعيد من مكان هتفا فيه، وعندما دخلا وجدا المحقِّق ينتظر.

ابتسم قائلاً:

– إذن، أنتما لا تعترفان بالهزيمة؟ واليوم سأمتحن تحملكما.

ضرب وصراخ.

– يا أولاد...

من قائدكم...؟

صفع سي مروان ثمَّ تنقلت الصفعة لوجه الأشعث حتى طُرحا أرضاً، فنهضا وبالكاد كان سي مروان يرفع رأسه ليستقرَّ فوق كتفيه قائلاً:

– لا تُتعب نفسك، لا قائد لنا نخبرك باسمه، ولابد فقط أن تعلم.. اليد التي امتدت إلينا بسوء ستبتَر، واللسان الذي تطاول علينا سيقطع، وسوف نسترجع معبدنا أو نهـــــــدِّم البنيان كله على الفاسدين، فجناحه بدأ يسترجع أنفاسه ويرصُّ صفوفه وسيقلبون الطاولة لاسترجاعه من مختطفيه.

أطلق المحقِّق ضحكة تخلَّلها حديث متقطع:

– هذا الكلام كله وتريد أن تقنعني أنكما لا قائد لكما...؟ أنت لا تريد الاعتراف ولكن، هذا الأشعث سيقول كل شيء.

– لا تأمل الكثير..

فالأصمُّ الأبكم لا يسمع ولا يتكلم.

خطة لمحاربة العادات السلبية! عاطفة دفعت الشعور بالوحدة والتركيز على المشاعر، والاهتـــمام بالأفكار السلبية، والاندماج مع مجموعات تفكِّر، تشعرك بالتآزر وتخطي المشكلة.

في تلك الأثناء دخل عليهما الضابط بوجه عبوس، شرير تقطر عينه حقداً وشراسة، دخل فجأة فتظاهر بأنه يسعى من أجل انتزاع الاعتراف بأي شكلٍ وثمنٍ، فتحدَّث مع المحقِّق الذي كان يسألهما:

– هل اعترفا؟

– لا ...! لم يعترفا.

أجابه المحقِّق بخوف وضعف.

– هذا بسببك...؟ لأنك تشفق عليهما، فأنت تضيع وقتنا...

اخرج من هنا.

خرج المحقِّق ضعيفاً ومنكسر الخاطر، على وقع صراخ الضابط الشرِّير وأغلق في وجهه الباب، وواجه الأشعث أبواب النجاة من العذاب، انهال عليهما بالضرب الوحشي، فكان سي مروان يصرخ من شدة الألم بينما الأشعث لم يتألم.

صرخ في وجههما:

– حيوانات.. سوف تعترفا عاجلاً أو آجلا، وأما هذا الأصمُّ الأبكم سأجعله يتحدَّث فلا تقلق، سأنطقه اليوم.

في تلك اللحظات دخل المحقِّق عائداً إلى مكتبه، متظاهراً بالانفعال محاولا تهدئة الضَّابط، وتخليص الأشعث والسي مروان من بين فكيه:

– اهدأ...

هل تريد قتلهما؟ اتركني أتولى الأمر..

سأسحب منهما الاعتراف.

خرج الضّابط الشرِّير وبقي المحقِّق متظاهراً بتقديم المساعدة للأشعث والسي مروان، أجلسه على الكرسي ثم أجلس الأشعث على كرسي آخر، وقــــدَّم لهما الماء ليرتويا به، كأن الظمأ هو من أقرضهما حصَّة من الألم.

ثم سأل المحقِّق:

– من قائدكما؟

– قلت لك لا قائد لنا...! من نكون نحن لكي يكون لنا قائد؟

– إذن لن تعترفا...؟

سأجعلكما تفكِّران جيداً عندما تكونان في زنزانة مظلمة.

أشار المحقِّق للشخصين الواقفــين عند الباب: جذوع شجر الزَّان، يجرُّ أحدهـــــــما الأشعث والثاني يسحب سي مروان، ورموهما في قبر الأحياء المظلم.

تمتم سي مروان فرحاً:

– هذه المرة لست وحدي...؟

الحقيقة هي غير ما يراه الجميع، واليوم في خلوتي سأدقُّ بقبضة من حديد على رأس الفتنة، سوف أبتر أوصالها، فالحق لن يُمسحَ وجهه بالباطل.. مهما طال الباطل لابد من ظهور شمس الحقيقة.

كان الأشعث يسأل:

– هل رأيتَ أساليبهم...؟ أمطرت علينا بنار حقدهم الحارقة، وهذا ليس سحرًا شيطانيًا.. هذه حقيقة عدائهم لأنهم أعداء الحقِّ.

صمت قليلاً ثم همس بجدية، كأنه أراد أن يبوحَ بسرٍّ خطير:

– إنه القمع والاضطهاد يا صديقي.

هزَّ سي مروان كتفيه وسأله باستخفاف:

– وما يمكننا فعله...؟

برقت عيناه بحماس وهو يقول:

– هذه هي معركتنا القادمة، لا بد أن نكسر شوكة هذا الظلم والاضطهاد.

– أي معركة تتحدَّث عنها، ونحن في زنزانة مظلمة يا صديقي؟

– سوف نخرج من هنا إن شاء الله، فمعركتنا هي معركة الـــوعي، وإن فزنا سنخرج من عصر الظلم المظلم، فلا رغبة لي بالعيش في ظلام والله أنار الدنيا بنوره.

عاد سي مروان على وقع حديث الأشعث إلى زمن غير الذي كان يعيشه برفقته في زنزانة مغلقة باردة، حثَّه على التشبث بالأمل في حضور ذكـريات الصفع، وأهوال الألم، تركها في جسده ذلك الأحمق، فسأله قائلاً:

– وهل تظن أنهم يملكون عقلا كافياً لفهم غاية الحقِّ؟

غايتنا هي التّحرر من قيود الفساد، فهل يمكنهم فهمها؟!

– نعم !!

منهم من يملك بالتأكيد عقلاً كافيا للفهم، فقط.. لابد أن نوصل غايتنا غير ناقصة. أجابه بثقة.

في الليل لَمْ يقوَ سي مروان على النوم، فلَم تغمـــــض له عين، والأشعث يشخر بأعلى صوت، كأنه وجد السَّلام والرَّاحة لعظامه، وسي مروان بقي يهمس للظلام شاكياً:

– أنا في جهنم تفرُّ مني أعـــــــصابي وأحاسيسي تتبلَّد، الإرهاق يقتلني وعظامي تتفكَّك من مفاصلها، فأراها كومة مهملة فوق فراش الزنزانة البالي...

لا أقوى على التنفس وخدي يتورَّم.

صباح يوم الثلاثاء موعد المثول أما القاضي، وصلا في تمام العاشرة، فكانت هناك ثلاثة مقاعد مقابلة لمكتب القاضي، وفي زاوية منفردة رجل بدين حاد النظرات، يجلس على مقعد منفرد، ينظر إليهما في هدوء، والأشعث يقف إلى جانب سي مروان، ولم يتفوه بكلمة فيما كان القاضي يسأله:

– هل تعلم لِمَ أنتَ هنا؟

دون تردُّد:

– سيدي القاضي، لا أظن أن السير في الشارع جرم يعاقب عليه القانون، فمن حقِّ أي مواطن أن يمشي فوق تراب وطنه.

– لكنك متهم...

– سيدي القاضي، كنَّا نسير على الرصيف ولَمْ نتجمهر.

– تحدث فقط عن نفسك.

– سيدي القاضي، صديقي أبكم لا يتكلم، فمن غيري يمكنه سرد ما جرى؟ وقد تمَّ التعدي على كرامتنا، وضربنا دون حجَّة، ولا مبرر.

نظر القاضي إلى آثار الكدمات الظاهرة على وجه سي مروان ووجه صديقه الأشعث، ثم جاء قراره حكماً بالبراءة والإفراج.

الأمـــــل فسحة سماوية أطلَّت على مستقبل سي مروان، أجبرته على الاستمرار والتحدي، فأمدته بالقوة للوصول إلى ما تمنَّاه، متجاوزاً عقبات مؤلمة زادت الأمر تعقيداً، وعكَّرت صفوَ حياته لساعات، وقد تمتد لأيام وشهور..

– فعلا أتمنى أن أتغير. تمتم سي مروان.

اهتزَّ هاتف سي مروان معلناً عن وصول رسالة، قرأها وهو في حضرة الأشعث يتابـــع حواره دون أن يلتقط كلمة واحدة، لكن سأله في حيرة:

– هل من جديد؟

– رسالة أخبروني فيها أنه يخطُّ فوق صفحات الثورة بما تجود به قريحته من بديع الأوامر، نتباهى به فخرًا وعزَّة.

تعمَّد سي مروان ربط كلماته بكلمات الأشعث لغزل خيوط أفكارهما، جاعلاً مـن شخصه مأدبة تحوم عليه السبعة، وهـــو ثامنهم، فاقتحم خلوته ليعيده إلى زمن غابر، باحثا عن الحقيقة في كل مكان، متوسلا، راجياً أن يتحدث إليه، فثرثر طويلا حتى صفعه بصمت بائس، متوقعاً منه التراجع والعودة على أعقابه.

صرخ في وجهه قائلاً:

– كفى تعنتنا...!

حقُّنا في التّحرر شـرعي، ولسنا نطالب بما لا حقَّ لنا فيه.. نعم، حقيقة هناك مؤامـــرة لكن، ليس ضدها هي، فالمؤامرة ضد من استولى على حقِّنا، وسنقطع أطماع ذوي النوايا السّيئة.

(٨)

عاصفة الموت...

أمطر المجهول من حبر سمِّـه القاتل -وبعدما كان العالم في ركود، وسكينة-حروباً اقتلعت جذور السلام، جاعلة العلاقة بين بني البشر علاقة توهــج على جمر جهنم أخرست الصَّرخة، وأطفأت الشموع بعدما أشعلها الخليفة فبراير مباركة من ظلٍّ رافقها في كل مكان.

همسوا وتساءلوا:

– هل حقيقة اليوم فتحت أبوابها لكي تقتات على رفات الأنذال.. أم أنها وسيلة أخرى لجعل النجوم لا تضيء...؟

في طريقه التقى سي مروان ريم وهي تغادر المبنى الكبير: مستشفى يتألف من أربعة طوابق، وفي القبو قسم الإسعاف، وخمس غرف لاستقبال مختلف أنـــواع الإسعافات، على مدى ساعات المداومة كانت تعجُّ بالوافدين.

صباح أبيض.. طُرِّز بالورد الزاهي، ولا شيء أجمل من لحظات النَّقاء والهدوء، وصوت العصافير، يخرج للأفق شيئا فشيئا، ومسامع الحياة بدأت بالظهور حيث الساعة تشير إلى الثامنة صباحا، التقى بها وهي خارجة مـــــن المداومة الليلية، فاستوقفته قائلة:

– لقد جاءكم الحقُّ وأنتم عنه غافلون.. سوف يخيم السكون اليوم على تلك الأحياء، التي كانت بالأمس تعجُّ بالمارَّة، وستخلو الشوارع ويسود الهدوء التَّام.

وقف سي مروان يحدِّق في ريم، جمالها قمر مكتمل في سماء ليل أسودَ، وجهها المستدير، الوردي اللون تزينه عيناها الخضراوان بلون أعشاب البحر، وشعرها الأصفر خيوط من ذهب شاب كغصن مزهر، لهجتها في الحديث إشراقه بخفَّة الحركة كظبي البراري، حسنة الأخلاق مهذَّبة، عطوفة تسعى إلى تحقيق أحلامها بالمشقَّة والعمل الدؤوب.

رنَّ هاتفه..

– ألو، نعم صديقي!! ماذا حلَّ بكَ؟ وما سبب قلقك هذا...؟

الحياة اهتمام، كالشمعة المقدَّسة التي أضاءت ليالي الحياة، وبتواضع ورقة بدأ سي مروان طريق المعرفة بقراءة أولية من أوراق الحياة المقدَّسة، يوم سمعته على الهاتف يتحدَّث، ويلهثُ من شدَّة العياء، يسعل حتى انقطعت أنفاسه.

انقطعت المكالمة لشرِّ العواقب يأساً قبله أمل، فأعضل الدَّاء نكسة بعد إبلال، طامعاً، والأسباب عاجزة على قارعة الترجي هالكة وسط اليأس محاولا الاتصال به من جديد.. دون جدوى، لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس.

سلك سي مروان الطريق السهل، طريق يسلكه العاجزون، فأغلق الهاتف ثـــم نظر في وجه ريم

مبتسماً، ابتسامة لم تكلِّفه شيئا ولم تستغرق أكثر من لمحة بصر، وذكراها بقيت طويلا تفتخر لتفوقها على الحزن:

– هذا صديقي...

أحسست بتعبه، وسعاله الحادّ كاد أن يمزق طبلة أذني.

– قلت لك جاءنا الحقُّ، ونحن عنه غافلون؟

إنها النهاية.

– نهاية ماذا؟ ما الذي تريدين قوله...؟

– نهاية كل شيء!! نهايتنا على يد عدو خفي، طاعون مصطنع.. أعلنوا عنه الأمس، والعالم بأسره يتخبَّط تحت إبط الفيروس الفتَّاك.

جاء الظَّلام بسواده، فازدادت العتمة وغموض الأشياء حين ولد سي مروان في الليلة الممطرة ليوم الثاني والعشرين: عام الهلاك وسنة كبيسة.

فضيحة المشاعر، وقعت المسؤولية على عاتق الدهر، وآن للبحر أن يضحك طيلة أيامه، فعدو الأمس الذي كان يأتي من الخلف مباغتاً، اليوم يولَدُ بيننا في أدغال كراهية، خرجت فيها الأصناف المجوسية من قبو المفاجأة، والكل يبرِّر ويعلل:

– هل ما نراه اليوم سابقة تنذر بالفناء البشري...؟ هل كل هذه الفيروسات القاتلة: الجراد والزلازل لعنة على بني البشر؟

في تلك الليلة وِلِدَ المتحرِّر، وِلِدَ وبكاؤه هتافات متقطعة من جوهر ظلِ الوجدان، ظلَّ رافق السلمية طيلة حملة الـــــــوعي والتقدم، وبينما كان الكل يسيرون نحو المجهول تمرَّد، ولم يتقبل الرضوخ لحتمية وجدها مبنية فوق الرمال المتحركة، رمال تصبُّ في فم نكسة عاشها الوطن لقرابة العقد الكامل، فولِدَ فاقداً لشهية الحياة، لكن ضميره ولد متحرِّرًا.. فمَا الذي يجعله يتشبث بالحياة حتى الآن على رموش الحورية؟

منذ زمن ولِدَ الضمير وصنعت له تعـــــويذة اللون الأحمر، أضحى سي مروان اليوم يكرهه، يذكِّره بالمآسي التي مرَّت على كاهله، معاناة عاشها وكرهها منذ ولد على قارعة يوم الثاني والعشرين.. اليوم يستطيع اختيار الألوان، ويمكنه أن يقاطع اللون الأحمر القاني، يرَاه قادما لبتر أوصال البشرية.

– فكم كنت غبيا لأصدِّق...؟ قال سي مروان.

منذ البداية والحقيقة يلفها الغموض، لقد صدَّق أن تعويذة النجاة هي الوقاية، كان يلومها منذ البداية لأنَّها تركته دون تعويذة تحفظه من تحرُّر واكب أجناساً من

الفيروســـــات القاتلة، وأحيانا كان يحاور نفسه ويعاتبها لأنها أصغت بصدق لحديث الدهاليز.

يلومها دون تردُّد:

– لِمَ تصدقين كل شيء...؟

ألا تعلمين أنها مكيدة حيكت لجعلنا نصمت...؟ لجعلنا لا نواصل ما بدأناه منذ ولدتُ متحرِّراً؟

كانت تنعته بالهستيري المتعنت:

– مكيدة من...؟ والقاتل مجهول.. قد تقتلك الهستيريا المفرطة إن أكملتَ على هذا المنوال.

سحب سي مروان الشوكة من الوجدان، ولم يعاتب أحدا سوى نفسه يلومها دوما لأنها صدَّقت، ودون وعي يمكنها من الفهم والتمكُّن، رأى السراب الغامـــض همّه تعويذة النجاح، وتعزيز النباح كما نبح الكلب المربوط عند البوابة الزمنية، منها يمكنه العودة لأيام مضت، وجعل أيامه أجمل من هذه التي عاشها اليوم.. فلِمَ يكتب تلك اللحظات بحبر القلم...؟

لحظات كُتبت بدم القلب، لذا عذراً إن ظهرت الجراح على السطور، فقد سئم واكتفى من الكــــلام، فآثر الصمت لغة العيون، تاركاً الحبر يتكلم، معاتباً ضميره الذي سمع دون تفكير وتركيز، لم يندِّد أبدا قبل ولادته في يـوم الثاني

والعشرين، أمر تكرَّر عبر تلك المواقف كعتبات في وجهه ضاربة.

خطابات دون ملل وكلل:

– هذه تعويذة من عيون الحرية والتّحرر.. وهذه تعويذة من شرِّ كورونا الفتَّاك.. وهذه تعويذة من الجراد.. وهذه من شرِّ الزلازل والطوفان، إذن...! لم يبق لنا سوى تعويذة من البق والقمل المهجَّن يا ضميري.

قلب صفحة من كتاب العمر لا يكون دائماً سهلاً، لكن فقدان الشَّجاعة لاقتلاعها جعل سي مروان حرفاً خطَّ على صفحة محورية لكل الفصول.. حبذا لو أنَّه نسي ما نساه الزمن.

نسي أن يصنع تعويذة تحميه من نفسه، وحتى تلك التعويذات التي صُنعت، لم تنفعه أمام كثرة الأوبئة المصنَّعة في مخابر الشيطان، ولم تنفعه في وجه طاغوتٍ يريد كسر ركيزة التّحرر:

– نحن لا نملك شيئا، ولم يتركوا لنا أي شيء ذا قيمة، فقد أخذوا منها الجوهر، واليوم يريدون موتنا بفيروس خفي، لكن التّحرر أهم من طعامهم وشرابهم.

بعدما ولدته الحتمية في فبراير، كبُر على مدار عام التندِّيد والتحرُّر، وفهم أن كل البؤساء القدامى دجَّالون

بالفطرة، ساعدهم الزمن بتعويذات وصلتهم في لونها الأحمر القاني.
بكـى سي مروان وبكى معه الزَّمن، ولم يعتزل بكاءه إلا عندما أخبره:

– لا تحزن أيُّها الزمن، نحن نكذب وتعويذاتك صادقة مباركة.

تعويذة حتمية تنجَّست بشعارات عين الشرِّ الناكرة، فلم تكن على غفلة قارعة دهاليزها، بل ولدت وتربعت على عرش وحوش البشر.

رافق ضمير ســـي مروان الزمن وجعله شريكه في كل شيء، ومنذ كان طفلا نـشأ بـلا جروح، ولم تكن له حجَّة لجرح نفسه، لكن عندما كبُر نسي تقليم حريته، فجرحته ولا يزال يعاني من الجروح قائلاً:

– أريد أن استنـشق هـواء الحرية والاطمئنان، أريد أن أكون مثل الطيور دون قيد، سأتحرَّر رغم كل تلك الأنباء التي تزجُّ بالخوف ليكون سبيلا للرَّدع والعزوف.

تلك أجمل الأوقات التي مرَّت على رأسه، وقبل أن يتم غزوه من الشيب والصلع، وأسوئها مرَّت عليه هوساً وفي نظره سجنا جماعياً بشعور انفرادي، وكان دائم الهوس:

– لا تجمعنا أهدف مشتركة...

أنا أريد التّحرر وهناك من يريد العبودية، لكني أملك القلم والأوراق.

أقرب أصدقائه حورية السمراء، تغضب كلـما رأت في يديه القلـم، وفوق طاولته الـورق، كانت تعلم أن شغفه بالكتابة يزداد كلما ضاق صدره، ولم تكن تلك الأوراق وحدها لهفته للحياة، بل منذ ولادته الحتمية يردِّدها جملة واحدة موحدة:

– أملك اليوم وحوشاً وعتمة بلا قمر، رغباتي تقشعر لها الأبدان، كلما مشيت كبُر الوحش في داخلي...

أريد أن أفهم... لماذا ولدت على عتبة الثاني والعشرين من فبراير...؟ لماذا أكبر وتتوج حياتي بوسام العناء والشقاء؟ ولماذا يتقدم عمري وأنا أكـــافح أعداء الخفاء، والشيطان الدجّال؟ ألم يكن من المحتمل أن أعيش طفولة ولادة ثانية في أبهى حلَّة للحياة، لو أنني ولدت قبل نزول الأوبئة التي هجَّنها الشيطان في دهاليز النظام المعادي؟ لكني أظن فقط أنَّ القلوب تتحجَّر والزمن يمرُّ بسرعة.

كلما مرت الأيام أمام عيون سي مروان فهم المقولة التي كان حائراً عند سماعها: القلوب تموت وتتحجَّر كما تتحجَّر الحجارة وتموت أيضا.

ولدته الحتمية على عتبة فبراير طفلا ودوداً، فأراد بلوغ لذة التّحرر برفقة حورية السمراء، تلك التي تركها في بقعة استولى عليها النفوذ وخانتها العهود، فكان الكل ينادي من خلف الستار:

– اِلْزموا بيوتكم فالموت يحدق بكم.. فتَّاك يقتل.

لابد من الحيطة والحذر.

التقى سي مروان بصديقه الأشعث في ساحة الثورة، أتقن الأشعث فن الخلوة والوحدة فأصبحت لديه بلَدة المخمور. اعتاد على الجلوس وحيدا منفرداً، متهرِّبا من الناس ومتحرِّراً من احتياجه لهم، فأصبح صديق نفسه، قبل أن يجده سي مروان جالساً في الزاوية يفكِّر، وعندما حدَّق في عينيه تذكَّر المـــــأساة والنكسات، لكنَّه تشجَّع وابتسم قائلاً:

– ذلك اليوم قد ذهب، ولن يعود...

ولدنا لنلعب على الأوتار الحسّاسة رفقة الذين ولدوا عنوة في وجه الفيروس الفتّاك.

– الوقت خطير، خطير جدا ما يحدث يا صديقي، فهل يخبروننا بالحقيقة...؟

– عندما نشاهد الأخبار لا نصدِّق، لأنها ولدت في جلسة الكذب، لكن العـــــقول تستشعر الضرر يا

صديقي الأشعث، ونحن نعلـــــم أن الوقت لا يجعل منا خيولاً يركبونها، إنما نحن أسودٌ ولدنا لنزأر.

– هذا الوباء يدخل مرحلته الثانية، والتّحرر يدخل المرحلة الثانية يا صديقي، لهذا وجدتني حائراً أفكِّر: هل الوباء والتّحرر توأمان...؟

شـعر سي مروان بالتعب فترك كل شيء ورجع إلى مكتب حورية السمراء، المكان الذي جعل منه نزلاً للراحة والتفكير. عندما دخل ارتمى على الكنبة بملابس حملت الفيروس الذي أفزع المتحرِّرين أمثاله، عزفوا عن ترديد شعارات سُمعت كل مرَّة تعلو وينبض لها القلب امتناناً، أغمض سـي مروان عينيه، فـــــرأى حورية السمراء تضع له كمَّادات على جبينه، وجسده مرهق من الحمَّى النرجسية والحرارة المستبِّدة لمطالبه، فأخذه النوم بكل ما حمل من أمنيات التّحرر.

كوابيس مزعجة جدا أيقظت سي مروان مفزوعاً.. مرعوباً.. فوجد حورية السمراء تمسك برأسه، وتحدِّق في وجهه الشاحب فحدَّثها ولسانه يتلعثم:

– رأيته في المنام..! قـد أصبح مثلي وتسرَّج بعلم الفراسة.. إنه هو... هو من أفزعني...

(٩)

عدوى مزمنة...

سأروي لكم البداية اليوم.. تزوجت حورية السمراء زواجاً تقليدياً ولم يدم طــويلاً، طُلقت بعدما دنَّس زوجها مقوِّمات التّحرر، وذبـــحوا رجاله المخلصين وشرَّدوا المنتصرين، والآن كبُرت، وأصبح الكل يتنابزون باسمها شماتة.

حدَّثها سي مروان وهي منهمكة في ترتيب مكتبها لحدث مهمٍّ:

– أنت تكبُرين..! ولا تريدين الزَّواج ثانيَةً، الحياة لا تدوم للأمد فلابد من ترك بذرة للمستقبل.

– اسكت ولا تفتِ...

العمر شقاء، يفرض شروطه علينا ولا يترك لنا هذا الوباء مجالا للزواج، أم أنَّك تريد مني أن أعيش في سرداب العشق في زمن الكورونا..؟ وهل نسيت أنَّ الزواج دون وعي في حدٍّ ذاته فيروس فتّاك؟

– يتغيَّر المـــزاج والشكل للفيروسات عزيزتي السمراء، واليوم إمَّا أن نسلك الطّريق الذي خُطِّطَ لنا فنسلم من قهقهتهم، أو نجعل من شرفنا علكة في أفواه النَّجاسة، فلعابهم يسيل لسرد القِصَص.

صمتت حورية السمراء قليلا، ثمّ نظرت إلى سي مروان بنظرة غضب قائلةً:

– لماذا تزوجتك قوس الشرق إذن، وهي تعلم أنَّك لم تكن حيًّا منذ أربعين سنة، قد ولدت في الثاني والعشرين حلماً، له مطامح التّحرر؟

– جرى كل شيء بسرعة.. لا أنكر ذلك.

بنى سي مروان الأمـــــــل على أوهام تحقَّقت في أحلامه، كثعلب نائم يحصي الدّجاج.. يستيقظ وزوجته قوس الشَّرق ترتدي وجه حورية السمراء في حلمه أميرةً. للوهلة الأولى تردَّد ظناً أنَّها فتاة ضاجعها في حلـــــم شفّاف، لكنَّه انصدم بمجرَّد رؤيته المساحيق على وجهها، وأثّر التّعب من التّفكير بمصيرها المجهول في قبضة الزوج المتحرِّر.

لاحظت في وجهه آثار الصَّدمة، ورغبة جامحة للعودة إلى بوابة الزَّمن، والعودة من حيث نشأ لمحو آثار المسحوق وحرق الطُّبول.

سكت مجدَّدا.. أغمض عينيه آمِلًا أن ينتهي الحلم، وعندما نظر لثاني مرَّة، وجد قوس الشَّرق تنظر مستغربةً من خطئه في حضرة وجودها، فتشجَّع وأُكمل حديثه، وبعدها نهض متَّجها نحو المغسل، يلعن غباءه، وهـــو يشمُّ حظَّها التَّعيس، الذي رماها بين أحضان شخص مثله، غائباً عن وعي المسؤولية والحياة:

– وهل بهذه السرعة تخلَّص أهلك من المسؤولية، كما تخلَّصت أنا من حتمية الضرورة للزواج؟ أم أنَّ الارتباط المشوه حلٌّ لمشاكلنا؟

– تمنَّيت الهرب من واقعة تركت في نفسي جرحًا لم يندمل.

– ولماذا لم تهرب طالما أنَّك فكَّرت في الهرب؟

– أنا جبان يا عزيزتي.

– صدَّقت كون الهروب من المسؤوليَّة صفة الجبان، لكنَّك لم تهرب.

– كل شيء حدث على غفلةٍ وانتهى العتاب، فمن هذا الذي لا يتذوَّق العسل عندما يجده بين شفتيه؟!

قلبه الودود أراد بلوغ لذة التّحرر، برفقة حورية السمراء. تركها سي مروان في بقعة استولى عليها النّفوذ وخانتها العهود، والكل ينادي من خلف السِّتار:

– اِلْزموا البيوت.. إنَّه فتَّاك يقتل.

لابد من الحيطة والحذر.

وضعت حورية السمراء صينية عليها كأسان من عصير الرمان، لعصر الفكر المستعصي فوق مكتب من خشب البلوط الأحمر، ومعها سلة من فواكه التفاح الأصفر، ثمَّ

أخذت كأس العصير تمتصُّ منه الحــياة تحت الضوء الطّفيف، وفي قلب ســــــي مروان دخان خرج من فم الأرق، وأنفاسه كأنفاس رجل ميت يحاول استنشاق روحه التي فارقته مغادرةً.

رجع فاهـــد بعدما أمضى العام الحادي عشر، بعد العشرة، أعـــــوام من عمره التي أمضاها كشبح في الصحراء، واليوم حقيقة لا يشبه الأمس، غادرت الألفة وجهه عنوة، وتركته كثعلب يبحث عـــــن الفَيء ليختبئ في حماه، هروباً من لدغة الحر، وسعيه نصب شباكاً بمعية الظِّلِّ الحافظ.

طـــرق باب المكتب.. فتحت له حورية السمراء مبتسمة، وعندما دخل رأت الدخـــان الأبيض يخرج من فمه، كمن خرجت روحه في لهفة المغادرة، ورائحة أنفاسه برائحة موتٍ طغت على رائحة عسل اللقاء، ومتعة الجمال الأسمر.

وقف سي مروان وراح يحدِّق فيه قائلاً:

– وجهك أســود كعتمة ليلةٍ رحل عنها القمر والنجوم، كأنَّ الموت سكنك، عيناك كأنَّهما عينا ميتٍ لا تتحركان.

ابتسم قائلاً:

– أنا أراكَ يا صديقي، أنظر فيكَ وكـأنني أنظر في المرآة، فأرى نفسي وهي لا تراني.

صمت سي مروان، وحدَّق في وجهه الشّاحب، فرأى وجهه الحقيقي الذي أخبره به دوما، ثمَّ فجأة رجعت ابتسامة فاهد وهَمَّ قائلاً:

– أكمل ... ماذا بعد؟ لماذا لا تكمل حديثكَ؟

جلس فاهد على الأريكة يحدِّق في وجه سي مروان، متلذِّذا امتصاص الروح المتبقية في كأس عصير الرمان، ويده ممسكة بسيجارة النّشوة تمتص منه الحياة نافثاً مـــــن قلبه سموم الألم، معوِّضا أياها بسموم السيجارة المعشوقة:

– لا أعلم يا صديقي إن كنت محقًّا، ماذا سيقوله المجتمع عن حورية السـمراء التي طُلقت قبل أن يجهِّزوا لزواجها الثاني، هل أنت حقيقة حبيبها المتحرِّر أم أنَّها علاقةٌ عابِرةٌ ونزوةٌ راسبةٌ؟

لا تريد أن تقرَّ أنَّك سلّمت روحها لزوبعة الوباء، كأنَّك تسلِّم حبيبتكَ لرجُلٍ مرَّ مرور عابر السبيل.

– لا يا صديقي.. حورية السمراء قوية ولها جذور في عمق الثبات، ليست بشعة لكي يهجرها الكفاح.

حدَّقت حورية السمراء في فاهد وسـي مروان بنظرة مريبةٍ، حاملة في بؤبُؤ عينيها غضب السّخرية، فلم تتوان عن الحديث بعزم وثبات، مدافعة عن كرامةٍ بقيت لها معلَّقة بين الزَّوال والاستمرار:

– يمكنكم أن تروني كما تريدون، لكنَّني أدافع عن حقي في الحياة، ولست متوحشةً.. قد سألتك سابقاً ولم تقنعني بجوابكَ، فما سبب زواجكَ؟

– أصرّوا عليَّ، ولهذا تزوجت.. هذه هي الحقيقة.

تذكّر سي مروان دموع زمنا صنع له تعويذة الزواج، جعلته يضعف أمام قـــوة غامضة، يتطلَّع في منظر أثار فيه الانفعال، فاستولى على نفسه وخلق فيها حالـــة من النّشوة، والارتـــياح لجميل وسمه بالطموح الوحيد والأوحد، وغاية ذوقه المانعة الصّادة، ممقوتا في العيون المجرّدة من التَّهذيب.

كان دائما يسأل نفسه:

– هل حقيقة هذه التّعويذة تعويذة الزمن؟ وإن كانت كذلك فهذه المرَّة قد أصابت في نفعٍ ...! لأنِّي أستسلم للخوف وأتزوج التّحرر.

– أنت دائم الخوف من مضغ المجتمع للكلام.

تلوّنت الحياة بألوان التفاؤل، والسعادة والفرح، فأصبحت لوحة تنتظر الألوان لتغدو أكثر جمالاً، وفاهد ابتسم حتى ظهرت أسنانه المتآكلة من أثر السنين وتعب الأيام، ثمَّ تحدّث قائلاً:

– ماذا سيقولون عني إن...؟

– لا تيأس إذا تعثَّرت قدماك.

منذ القديم وسي مروان يساير المعتقد، أحجية ولدت الحتمية لوجود أبشع الصّفات في شخصيته، التي نفرت منها الحقيقة الواجب تقبلها، والأصدقاء يعاتبونه قائلين:

– حتى وإن سقطت في حفرةٍ واسعةٍ، فسوف تخرج منها وأنت أكثر تماسكاً وقوة، فلماذا تنكر الصفات الحقيقية التي تبني ذاتك، وتحاول جاهداً أن تثبت للمجتمع أنّك رجل صالح؟

صرخ فاهد في وجه سي مروان قائلاً:

– لماذا لا تجيب بالحقيقة، لماذا تنكر أنّك رجل يهوى النِّساء ويضاجع اللّذة في سرٍّ؟

عبارات صدمت سي مروان كسهامٍ جارحةٍ، حملتها رياح الأمس معاتبةً فلـــــم يرد عليها لأنّها حقيقة لا يمكن نكرانها، فبينه وبين ذاته المتعجرفة يعلم أنَ الطيور تحلِّق بأجنحةٍ حرَّة، لذلك هجر السّبيل الذي جعل منه مصَّاص دماء يمتصُّ الرّوح المتبقية من كأس عصير الرمان، تحت عيون حورية السمراء تراقبه بنظرات معاتبة، ولا تفلته، فشعر أنَّ الكلام انتهى على غرقٍ في يمٍّ الأوهام والأحزان.

حدَّقت حورية السمراء مجدّداً، بعينين لبستا ثوب احمرار التَّعويذة التي لا تنفك تغادر ذهن سي مروان، فأرعبته قائلةً:

– أنتَ الشَّبح، وتخاف من مستقبل غائب...

أنتَ كغيرِكَ من الرجال، تتزوجون لحماية لذتكـــــم وفقط، تربيتم على فكرة: المرأة تخدمكم.. تنكرون أحقيتنا في الحياة.

لم يرُد عليها سي مروان ففاضت غيظًا بحديثها:

– أنتم مصيبة تحت اسم الاستسلام، أنتم الضّرورة المخالفة للواقع، لكن نحن في حاجة لكم لإتمام الغاية التي ولدتم لأجلها نزوة.

سؤال وجواب.. تعلَّم فاهد من حديثه أنَّ السعادة الحقَّة لا يمكن أن تأتي صراخًا، والثرثرة تخلق المشكلات، فلابد له من حالة عميقة للسكينة، تقلّ فيها الحاجة إلى الكلام، وتنعدم الرّغبة في الثرثرة، فاللسان يثير النعرات، وهذه هي حالة الرؤية الداخلية المبهجة، والإحساس بالصلح مع النّفس، فلو كان للناس أن يلجموا ألسنتهم عن الكلام لما كان بينهم خصام، والاقـــــتناع عميق بالعدالة الكامنة في الوجود كله، وقبول جميع الآلام في رضى وابتسام.

يبتسم مكرًا في وجهه وشقاوة مكره حلاوة تلذّذت بها لسنوات:

– لقد كنَّا في أثر الحياة جنبًا إلى جنب نساير الأهواء والأهوال.

– نعم صحيح، ولا نعلم لماذا تعودنا على الأمر هكذا...

صدَّ سي مروان رغباته نهارًا، ولكنَّه كان يعرِّيها كل ليلة لتتلاعب بأقدارها كما شاءت، فحلَّق على متن بساط ضحكاتها لنيل خط نهاية اللذة وضحكاتها، وككل مرّة تتهرّب من مخالب تحرُّره مع طلوع فجرٍ جديدٍ، فتوتّر سي مروان أكثر وأخذ يصرخ في وجهيهما:

– لا يمكنني أن أخرج عن الطَّاعة، ولا عن الصَّف الذي تراصف وترادف، وإذا خرجت سيتهمونني شرَّ اتهامٍ.

ضحكت حورية السمراء في وجهه قائلةً:

– ومن طلب منك أن تهرول نحو الماضي للكشف عن هفواتك؟ أكيد إذا حاولت الرجوع لسابق العهد لن يتركوك تعود ثانية.

– عودتي إلى الماضي ترعبهم وتخيفهم، وخوفهم سيخيفني أكيد يا حوريتي السمراء، فلا يمكنني ترك أناس

أحبهم، والعودة للبحث عن هفواتي الماضية، وإن أقدمت على تركهم، يعني أنني سأتخلى عنهم.

– أنا أساندك وأنت لهم ظهر للاتكاء، فلا تسمع لصديقك الظِّل الذي لا يريد أَن تظلَّ تحت ظلِّه بعد اليوم.

– ليس له خيار فيما هو عليه اليوم...

يوما ما سيقتلني أو أقتله.

كثـــــرة السّذاجة أظهرت للسي مروان الحتمية محكمة، والمتهم زمـــــن صنع له تعويذات لم تنفعه في شيء، سوى الهروب ومضاجعة سراب الحياة، رآها بالأمس تحمل أمتعتها مغادرة مع أول نكسة حلَّت به.

غادرتنا مبتسمةً غاضبة:

– تفكيركم شيطان بذاته، وأنتم أنفسكم الحاضر الغائب عن الحياة، وأنت بالذات أيُّها المتحرِّر لن تختار بداية حكايتك ولا نهايتها.. ستتوقف عند منعطفٍ لم تتوقعه.

(١٠)

كابوس قاتل...

ندفع الثمن في حضور خطيئة الهــــــروب من حتمية التّحرر، وتشكل المجتمع الذي نحن فيه.. بلورته الظروف في تشكيلة متقنة، متكونة مـــن بيوت تشترك في الألم والأحزان، وتتقاســم الكراهية الداخلية والابتسامة السّطحية، المغطاة بظاهر التّواصل المزيف.

سي مروان يعاتبه الضمير عن سذاجة أيام مضت تحت سقف النداء، وكان ينبهه قائلًا:

– لا تفتح أبوابك للشّك في تحرّر ولد يوم ولدت في الثاني والعشرين، وإن فتحت الباب للشّك أدخلت الشّــيطان الجنّة، وأنت تعلم أنَّ الله قد لعنه لعنةً لا شفاعة فيها.

وفاهد يسأله مرارً وتكرارًا:

– كيف التقيت بحوريتك السمراء؟

– حكاية لا تغيب!

طرف اللقاء بينهما مطلب، ولد الأمس ليتغذَّى بتحرّر اليوم، ولم تزهق روحه يوم رفع العلم بعد الانتصار كما تخيَّلها الكثيرون، وقد رأى سي مروان الحورية كثيرا بين صفوف الطّيور المحلِّقة، ولكنَّه يشك ولا يزال على قناعته الخالدة، لذلك سأل الزَّمن مرارًا:

– هل الحورية تعيش حقيقة في بيتنا؟ الشيء الوحيد الذي يجذبني للحرية هو شكلها، ومع ذلك لا أعرف كيف تخطر على بالنا الأسئلة دون إجابة.

منذ بداية الثورة السلمية طرحتهما الحتمية، فولدتهما الظروف هكذا في لقاء دون مقدمات، صدفة وبالقرب من مصابيح النور حدث ما لن ينسى أبدًا، فيوم قرَّر سي مروان السّفر على غفلة، حتمية تبناها الظلُّ رفيق دربه على طول المسيرة، الــذي مدَّ له العون ضرورةً لعدم الوقوع في المحظور، وعندما رفضها الجميع سلطناً عليـــهم دمع الزّمن، والتّعويذات التي صنعت للصدِّ من صراخ التّحرر، فلم تقيد الإصرار.. انقلب السِّحر على السَّاحر.

اليوم مع بداية آخر يوم من الأسبوع الأخير من شهر الأزمة، في ظلِّ التّحرر الذي رافقه سـي مروان طيلة العام الأول، بعد أن ولدته عنوة في الثاني والعشرين، يوشك قمر التّحرر على الموت قنطاً، بعد الإعلان عن حجره صحياً، كان الكل يصرخ، ويندِّد:

– الحجر الصحي كسر للتّحرر...

إنَّه الحصار.

مجتمعين، كانوا في مكتب حورية السمراء، وهناك سمعوا خبر الإعلان عــن الحجر الصحي لمدة خمسة عشر يوما

بدايــــــــــة، وأضـحى الكل يتقلّب في مخيَّـــــــم النّار، والدّهشة، والحقيقة التي لابد ألا تقاوم، ولم تكن مهمة أحد غير الظلِّ الوفي.

سألته حورية السمراء:

– من هذا الذي تقع على عاتقه هذه المهمة؟

– إنَّه الظِّلُّ ولا غير، ولا تنسي أنَّ الظِّل له دراية بالأنظمة العالمية، وسنطلق على هذا الزّمن الذي نحن فيه اليوم: زمن " الكورونا ".

بداية الظّلام قــد أتى واشتد الليل بسواده، وازدادت عتمته، فلم تستكن نفس سي مروان، ولم تهدأ في راحة، والبلاد تعيش أقوى حالة ذعر، كيف لا..؟! والمجتمعات التي لا تجرؤ على فتح حوارات المستقبل ودراسة أفكارها، ستضطرها الأزمات إلى الاقتناع بجدواها، ولكن بعد أن تدفع ثمناً باهضًّا وضرائب فادحة.. اليوم جاء الوباء بعد موجة السياسيين الذين عاثوا في البلاد فسادًا واستبدادًا، أُحكم زمام الأُمور خانقًا للحناجر، والسي مروان ثائراً يقول:

– كأنني في غيبوبة، متى قلنا نعم؟ ومتى وقَّعنا على إقرار النّهاية؟ لا أدري كيف...!

قد حدث الأمر هكذا وبسرعة، موازين القوى العالمية والأزمة الوبائية، ونشوب حرب عالمية لقلب الموازين بين الشّيطان وعينه.

قبل أن يكمل سي مروان حديثه تحدَّث صديقه فاهد قائلاً:

– سيكون للظِّل دور فعَّال في امتصاص الأزمات القادمة التي ستثور بين الأقطاب ما دام له الورقة الرّابحة، يلعبها ككل مرَّة لإخراجنا من بؤر التوتر.

المهمَّة صعبة للغاية، والخروج عن تلك المهمَّة التي أوكلت للسي مروان وصديقه فاهد، لمواكبة الشارع، وكبح عدوى حمَّى مسلحة زرعها الوباء في النُّفوس.

دخل الجميع - حورية السمراء وسي مروان برفقة فاهد - دهليز حمَّى مسلحة خلَّفت الضَّحايا بالآلاف، مكان كدِّست فيه جثث الوبـــــاء التي امتصَّ منها العافية، وتركها بين الحياة والموت، وها هو يسحب بسمة المتحرِّرين الذين عزموا على مواصلة الطَّريق في مسعى المطالبة بالحقِّ المسجون.
هناك رأى سي مروان الظِّل يسحب الكرسي ويجلس إلى

جانب نائم، يراقبه في صمت أحداثٍ لفَّت ذاك الجسد، تحت حمَّى مسلحة عصفت بالبشرية جمعاء.

أنين وألم، ولا يعلم لِمَ فجأة أصبحت حورية السمراء خجولة أمـــــامه، وخطيبته بموافقة مبدئية من أهلها الأشباح، لكن لماذا لم يتحدَّثا بشكل جدي قبل أن يرتبطا بالمصير المحتوم، قد منعها الظلُّ اليوم من التّجوال في دهاليز المجوسية الوبائية؟ منعها من النظر في ذلك الرجل الممدّد على فراش الحمَّى المسلحة، فالسباحة وسط الماء العكر برفقة التّمساح غرور وذنب كبير.

دخل عليه واتهمه كأنَّه مذنب اعترف بخطيئة لنصف توبته:

– يخافون منك وأنت قريب منها يا سي مروان.

صمت لثوان، سكت فيها سي مروان ولم يتحدّث، فصمت الحرف في حلقه من هول تذكر الصّدمة، ثُمَّ لم يلبث أن تحدَّث في تعجبٍ:

– كيف يحدث هذا وبسرعة؟! وكأنَّ الأمر حلم.. أخطبوط أسود، قاتل صامت، وقد مات الكثيرون في طريقه وتناثرت جثثهم في كل مكان، وعلى رصيف الحمَّى المسلحة، زحفت الأفعى اليهـودية مجتاحة العالم بأسره.

منذ ولادة الوباء الأســـود في مخابر الشّيطان تحرَّرت العدوى، وأصبح الكل تحت وهم عشق النّجاة.

اجتمع الثمانية في مكتب ســـــي مروان لمواجهة الوضع، والتَّصدي لأفعى أرادت أن تمحوَ وجود البشر من على وجه الأرض برشَّةِ غازٍ في الهواء.

كان سي مروان يتحدَّث بصرامة:

– وهل سنقف مكتوفي الأيدي أمامها، وهي التي تريد أن تقضي على البشرية بأسرها؟ وهل سنكتفي بالمراقبة فقط في ظلِّ هوس الهيمنة، الذي تحكَّم ولا يزال يتحكَّم في العقول منذ الأزل؟ لا تنسوا أنَّ الشارع يصبُّ غضبه في وجوهنا كأنَّنا نحن المتسبِّبون في النَّكسة.

كانت حورية السمراء تسأل معاتبةً الجميع لعلمها أنَّ الظّلم الذي يستفاد منه هو حظٌّ، والظّلم الذي يستفيد منه سواهم يسمى فضيحةً:

– هل نحن السبب؟

حقيقة مقرفة سوف تلاحقنا للأبد، هذا هو الغباء بعينه فالمصيبة ليست في ظلم الأشرار، بل في صمت الأخيار، وإذا رغبت الملوك عن العدل رغبت الرّعية عن الطاعة. قال الأشعث.

خطف صقر الحديث من بين شدقيه، ولم يترك له المجال لإتمام تلك الجملة مصطاداً الكلمات من لبِّ الموضوع نفسه:

– نوم الظالم عبادة كما يقال، فكيف تمرُّ علينا الحياة دون تفكير في مخرج للأمّة، التي نحن عليها مؤتمنون؟

لابد من أن نتحرك لبسط ظلالنا على الواقع والبحث عن طريقة لإخراج البلاد من الأزمة دون خسائر، نحن لا نريد خسارة مصدر العزَّة والكرامة.

كم من طغاة ظنوا في أنفسهم مقدرة على مجاراة الكون في سننه أو مصارعته في ثوابته، لكنهم صنعوا بذلك أفخاخهم بأفعالهم، فكانت نهايتهم الحتمية هي الدليل الكافي على بلاهتهم وسوء صنيعهم.

انهمك سي مروان في مراقبة حورية السمراء، والشيخوخة تكتسي ذاتها بالألم منذ بداية الكفاح ضد الشّياطين، فأصبح جسدها نحيلاً ووجهها شاحباً، غيَّب جمالها الأسمر. يحدِّق فيها وهي تنهي تلك اللّوحة التي بدأت رسمها، ومع بداية الاجتماع أرادت تعليقها على جدار المكتب، لكن أصابتها شفرة بين الظفر والسبّابة، فسال دمها فوق الجدار يخطُّ جملة أسفل لوحتها: "الظِّلُّ في مُهِمَّةٍ". سي مروان وهو يفكِّر، ربط كل المعطيات بحتمية الموت على يد الأفعى السوداء: عين نجسة التوت على رقبة البشر، وفي محاولة يائسةٍ لإبعاد شبحها عنه، وردتهم مكالمة هاتفية من

عند ظلِّ الشَّبح تخبِّرهم أنَّ ابنتها في المشفى مصابة بالعدوى، فتجلَّى كل شيء ممكنا للانقراض، وفوق القبور تُبرَم صفقات الكبار، وتحت نعال المتحكِّمين يموت السذج الصغار.

غضب الأشعث.. ظلُّ الشَّبح: صديقته المفضلة، شقراء بشعر غزير كالشــتاء، أصفر كسنابل القمح، متوسطة القامة، وجهها مستدير، وابتسامتها تشبه ابتسامة الطّبيعة بعيـنين زرقاوين كماء البحر، يعلوهما حاجبان كبيران غزيران، وأنف صغير، وبشرة بيضاء اللون، ناصعة كالثلج برّاقة تلمع كالنجوم في الظلام.

فُضَّ الاجتماع وخرج الجميع من المكتب مسرعــين لتلبية النداء، تلك هـــــي قصة العشق الأبدي بين الأشباح والتراب، فالوطن تقتله الدموع وتحيِّيه الدِّماء، وكلَّما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه، توجّب التّصرف بحكمة.

الخميس آخر أيام الأسبوع البغيض؛ خرج البيان.. فاض الضوء من عتمة الوباء، والكل يسير في جماعة على طول شارع يقطنه سي مروان، بيوته تعيد للروح طفولته، فتسرح النّفس في الأفـــق البعيد لجدران البيوت الملتصقة بعضها ببعض، وكأنَّها جدار واحد ممتد عبر الأفق، وروائح الزعتر بزيت الزّيتون والريحان، تفوح من كل بيت، وعبر الأفق الشّاسع، تسمع أصوات الصغار المختلطة بأصوات الأجداد

والجدّات، وكأنَّ الحي بيت كبير يضمُّ الجميع، ويغمرهم بالدِّفء والحب في زمن وباء فتّاك.
أشجار الحي شاهدة على الشتاء والصيف، وربيع، وخريف السنوات الطويلة التي حفظت ذكرياته كلها عـــن ظهر قلب، وفي عتمة الرّأي كانت حورية السمراء تتصدَّر الخطى قائلةً:

– وهل نحن متسخون لهذا الحدِّ لكي نطهر الكراسي والأرصفة من النّجاسة والأوساخ؟ هذا زمن المجاملة والنِّفاق.

أصبح الغشُّ والخداع طريقًا لبلوغ القمّة، وعلى خطى توأم الكفر سائرون في اطمئنان، كذبٌ بصدقٍ، والكل يعلمون ويرون بأذانهم الصَّمَّاء الحرب في معركة الحياة، البعض يقودُ والبعض يقادُ، فما أقبح أن يكون الإنسان ذا وجهين!

سُمع صوت البوم مع حلول الظـــــلام على الفكر جملة واحدة، وصعب التّصديق والتّكذيب كون الكل سبح دون معطيات، ساروا في العتمة، فاقدين البوصلة خاصة لما استجدّ من أمور.

ذهب فاهد لزيارة سي مروان بعد أن أرسل له رسالة احتوت القلق الذي عصف بالعقول كلياً:

– أخيرا قرأت ما أرسلته لك وقرَّرت أن تستقبلني؟ كيف حالك سي مروان؟ هل أنت بخير؟

– حقيقةً، أقلقني ما قرأته منك، من أين يأتينا الخير؟ تفضل بالدخول بعدها لكل حديث ...حديث.

دخل فاهد الشقّة، والحيرة تعصر فكره، كمتفائل متهوِّر أطعم دجاجته فضّة حتى تبيض له ذهبًا، شقَّة صغيرة غير مرتبة، تناثرت الكثير من الكتب في كل مكان فيها، وفي غرفة الجلوس التي جدرانها باللون الأبيض، ركن مكون من أريكة بنية مزينة بوسائد صغـــيرة ملونة، ومقعدان بلون بُنِّي غامق، بالقرب منهما طاولة مربعة الشـــكل، لونها أسود قاتم، وهناك كتب وأوراق على مائدة الطعام، وبعضها الآخر على مكتب سي مروان، الذي قاده إلى غرفة الجلوس، ولم ينسَ حبه للمزاح يتقدّمه بطنه الكـــــبير، ووجهه الأسمر الممتلئ، تعلوه ابتسامة غطَّتها ملامح الأرق والتَّفكير، وشعره الأبيض الفارغ الناعم، يظهر جيدا شاربه الكبير، وقد مال سواده إلى لون رمادي ببقعة صفراء داكنة، تشهد حقاً على شراهته للتدخين، فمازح فاهد قائلاً:

– ألم يحن الوقت كي تجرِّب حلاوة التدخين يا فاهد؟

– التدخين مضر بالصحة يا سي مروان.

ضحك سي مروان ضحكة انقطعت قبل بدايتها، لكنَّه تنهّد في محاولة لالتقاط أنفاسا ضاعت منه في عــــالم خائن، لا يطاق، لقد تعلَّم وجوب امتلاك الإنسان لسلاح السّخرية والقوة، لكي يستطيع أن يحاربه حتى الموت، وتحدَّث قائلاً:

– حاولت يا فاهد، ولكني فشلت في الأخير.

اكتفى فاهد بالاستماع، وقد تربى على الإصغاء الذي جلب له الحكمة، تعلَّمها من رجل ضرير اختبر الطريق مرارًا وتكرارًا بعصاه قبل وضع قدميه على الأرض، حكيم جلس على عرش النمل، بينما وصفوه أصحاب الشعر العاطل بالأحمق في شرود حكمتهم العاطلة، وفي غــــياب خلاصة عقلٍ يتأمَّل، وقلب يتألَّم.

تحدَّث سي مروان وفاهد ضحك ضحكةً قصيرةً كأنَّما الحياة فتحت له بابا رغم أوجاعها:

– حاولت كثيراً، لكني كل مرَّة أهجم على السيجارة مجدّدًا.

– أنت تعاني من ضيق التنفس يا سي مروان...

التدخين ليس موضوعنا اليوم.

اليأس طريق سهل يسلكه العاجزون، ورغم ذلك طأطأ فاهد رأسه معلنا يأسه واستسلامه، وكـــان يضحك في صمت، وسي مروان يسأله في خبثٍ:

– هل تجدها جميلة؟

تظاهر فاهد بالحيرة مستفسراً:

– عمن تتحدَّث؟

– عن حورية السمراء أتحدَّث.

ضحك فاهد قائلاً:

– ملامحها جذَّابة ومريـحة، في ابتسامتها عظمة الحياة، وفي عينيها دهاؤها وعمقها.

طأطأ سي مروان رأسه قائلا بثقةٍ:

– إذن حتى أنت تعجبك؟ أنا أعرفك جيدا، وقد تربيت على يدي، أنا الأول الذي حمل طموحك على كف الانتباه، يوم ولدتك الضّرورة لكي تكون نجمة في سماء الأم الغالية..

تراني أنا دخلت زمن الشّيخوخة، أم الوطن بأكمله يدخل اليوم سنَّ اليأس الجماعي، فقد غاب جوهر الحرية يا فاهد.

صمتٌ لثوان.. الجدية لا تأتي صدفة، ولكنّها ترجَّلت على ملامــح فاهد، كأحسن وسيلة للتّغلب على الصّعاب واختراقها، فلم يرضَ أن يكون زارعاً وغيره حاصداً.

رد فاهد قائلاً:

– عندما يضع الشخص لمسة مميَّزة لعمله، فإنّه يضع تاجاً يكلَّل به جهده، وموضــــوعنا كنت قد حدَّثتك عنه، ليس حورية السمراء.

– أعلم هذا يا بُني، لكني أريــــــدك أن تحدثني قليلا عنها، وعن أخبارها اليوم، وكيف تركتها في عزِّ هذه الأزمة.

كفارس قادم من عصور الوفاء المنقرضة، تحدَّث سي مروان ضاحكاً في خبث من ذنبه، وتذكر يوم سكب رماد الخديعة في النَّهر، ولم يلبث حتى استدرك الأمر قائلاً:

– حسنا سأعدُّ القهوة أولا ثم نتحدَّث.

– ليس هناك وقت يا سي مروان.

دار الكذب حول الكرة الأرضية، منتظرا أن تلبس الحقيقة حذاء الجدِّية على وجه فاهد، فلم يقدر استعراض قدراته حتى لا ينفر منه سي مروان، فكان يتصرف بصدق، ويؤدِّي مهمته بإخلاص، لجعله يتراجع عن المزاح.

استدار سي مروان نحوه قائلاً:

– تقصد موضوع الأزمة التي عصفت بالعالم؟!

طأطأ فاهد رأسه في صمت، عالما أنَّ الغدر سلوك سيء، لا أخلاقي، يجعل صاحبه في قبحه عديم ثقة، فولد الجهل ثقته على وجه عقم المعرفة في مجتمع دمـــــر الثّقة من جذورها، فكان صمته حكماً سليماً ناتجا عن تجربة ولدت في كنف الحكم الخاطئ، الذي جعله يستمع لحديث سي مروان برويَّةٍ:

– لابد من الإدراك السليم..

التّسامح، والمرح يجعلانك تقي نفسك على سطح هذا الكوكب المتعفِّن، فالمرء لا يشعر بطعم الرخاء ما لم يذق طعم الشّدَّة.. والسعادة لا تهدِّمها الكوارث الكبرى، والأخطاء القاتلة.. التّكرار مدمر للأشياء، والقلق كرسي هزاز، يحركك دائما يا فاهد، ولكنّه لن يوصلك إلى أي مكان، فلابد أن تتخلَّص من الإحساس بأنّك الضحية.

– كما قالت لك حورية السمراء هي الغاية يا سي مروان.

– نعم حورية السمراء عقيدتها تحرُّرا، والجهد الذي ترتكز عليه الأزمة الحالية ليست بالشكل المعروض على

صفحات الأنترنت، الأمر لا يعد أكثر من جدل، وتضخيم للمعلومة حول مفاهيم الفيروس.

– هذا يعني أن هناك تقارباً بين أطروحة افتعال الوباء لكسر الاقتصاد العالمي، والثانية التي تفيد عزم الشّيطان على إبادة المعمورة لكي يستوطنها قومه الجشع.

– وهذا هو مربط الفرس، وسيكون الرّابط المشترك في سلسلة جرائم هذه الأفعى المسلحة.

– كيف ذلك؟

– هل تتذكَّر عندما هاتفتني؟ قلت لك أنَّ هذه الحمَّى لا تقتل بشكل عشوائي.

– نعم! من خلال الضحايا... نستطيع القول أنَّ هناك فعلاً رابطاً ما بين الضحايا و"غاز السريان".

– أفهم ما ترمي إليه، ولكن هناك ضبابية، فالدول التي أصيبت به ليست كلها شيوعية.

– مهما كان.. ليس هناك مبرر لقتلهم على هذا النّحو البشع.

– أرى أنّك ترمي إلى فكرة بعيدة، تنتهج نظرية المؤامرة.

ابتسم سي مروان ثم أشار بأصبعه قائلا في ثقة:

– سأثبت لك أنّك مخطئ.

انفلتت كحَّة قوية من فم سي مروان منعته من المواصلة، وهو يضع يده على صدره، ثم تنهَّد قائلا بصوت متحشرج:

– في نظر بعض أصحاب الفكر المتطرف كل الشّعوب لابد أن تباد، لأنّهم لا يوافقون مصالحهم..

هذه الأزمة مفتعلة يا بني، بدأت من "ووهان"، يعني أنَّ الفيروس له صديق في الجوار أو صديق الصديق، المهم أنّه لم تشرق شمس الوباء هكذا من العدم.

– يا اللّه، كيف هذا؟!

لمعت عينا سي مروان بينما كان يستمتع بدهشة اعتلت وجه فاهد، ثم بصعوبة نهض من مكانه وتوجَّه صوب مكتبه، تبعه فاهد في لهفة، وعند المكتب وقف يقلب بين كتبه، بحثا عن كتاب حتى وجده، كتاب بغلاف الجلد الأسود، مكتوب عليه بخطٍّ عريض: "الأفعى اليهودية".

أخذ الكتاب مبتسما ابتسامة الانتصار قائلاً:

– ماذا تعرف عن هذه الأفعى...؟

أخذ فاهد نفساً عميقاً ثم تحدَّث قائلا:

– لا أعلم عنها الكثير.

ألقى سي مروان بالكتاب بين يدي فاهد، وبخطوات ثقيلة عاد إلى غرفة الجلوس، فألقى بجسده البدين على الأريكة البنيَّة، ملتقطا أنفاسه في صعوبة قائلا:

– كتبه القائد العسكري، والمفكّر الإسلامي "عبد الله التل" عما يجب أن نراه، ويعمي الحـــكَّام العرب أعين شعوبهم عنه، ودور اليهود في تسيير العرب بشكل غير مباشر، والتحكُّم في نظم الحكم والسّيطرة على أراضي العرب جميعهم.

– نعم، التّاريخ فيه الكثير من المفاجآت، ليس معنى هذا أنَّ ما قاله صحيحاً.

– لقد اعتمد على روايات موثَّقة تاريخياً.

عاد فاهد للجلوس بالقرب من سي مروان، واضعا الكتاب على المائدة السوداء اللون التي توسطت الأرائك قائلاً:

– لا يمكن أن تكون كامل الروايات التّاريخية صحيحة.

– صحيح ما قلته.. لكن هناك روايات لا بد من تصديقها والدفاع عنها حتى الموت.

– كأنّك تقول أنّ الموت تم اختلاقه عمدا.

– استغفر الله العظيم.

الحقيقة إذا تكلَّمت ملكت العقول، وإن صمتت ملكت القلوب، كذلك ساد الصَّمت بينهما بلاغة، ولم يتمكّن فاهد إكمال الجملة، لكن العجب ذبح الثّور في الضحى، وهي مستمعة لأشواقهما، والصّمت عارٍ أتقن فنّ الحـــديث من النّفحة الذكورية، لكن فاهــــــــد استوقفه بحركة من يده، فأرجعها إلى العلبة قائلاً:

– أنا لم أقل لك أنّهـــم يخلقون الموت، فالموت من عند اللّه، ولكنّهم يريدون إبادة المعمورة ليسكّنوها وحدهم...

اليوم بدأت غربانهم النَّعيق مع صبيحة الأيام، وأضحى عقلي يشمُّ رائحة الموت تُحدق بنا، فلابد من التّصرف.

– يعني أنّك تصدِّق هذا الهراء؟ ردَّ عليه فاهد متهجماً.

– أنا باحث يا بني.. تربيت في الظِّل، وليس معنى ذلك أنِّي أصدِّق كل كلام، بل أضع أمامي كل المعطيات وأناقشها، أحلِّلها وأفنِّدها، ومعلوماتي بغض النظر عن صحتها أو كذبها، قد تكون خيط النور الذي سيساعدك على فهم دوافع الحمَّى المسلحة.

ابتسامة كافحت للظهور وسط صمت مطوّل، صمت ساد غرفة الجلوس وفاهد يفكِّر، ولكن سي مروان قطع عليه الانعزال قائلاً:

– افتح الكتاب على الصفحة...

سكت سي مروان بضع ثوان يسترجع ذاكرته، محاولا تذكر رقم الصفحة، لكن عقله انخرط في حزب النِّسيان.. قلَّب صفحة مــن كتاب عمره، ولم ينفعه الربيع ليكمل فرح الحياة، لكنَّه يعلم أنَّ نسيان الحقّ خيانة.

– لقد نسيت رقم الصفحات...

أمهلني ثواني سأتذكرها.

ردَّد بضعة أرقام بصوت خافت، بينما فاهد بدأ يقلب في صفحات الكتاب مندهشاً، مرّر عينيه في ذهـــول لما كان يقرأ، وسي مروان يبتسم خفية، وقد كان قد تنبّأ بردة فعل فاهد، ثم سرعان ما رفع عينيه ينظر في سي مروان قائلاً:

– لا عليك سي مروان...

سوف أقرأ الكتاب كليا، وبعدها نناقش أفكاره.

ابتسم سي مروان، وفاهد حامل بين يديه الكتاب، خارجاً نحو ردهة البيت تاركا إياه يبتسم ويطأطئ رأسه، فقد سنحت له الفرصة لإشعال سيجارة يتلذَّذ بدخانها الذي أدمن عليه فكره قبل دمه.

في ظلِّ السمراء كثرت المحن والأحزان، وتفاقم الوضع بشكل مخيف، جعل الكل عاجزا، فلم يتمكّن أحد من التّصدي، والوقوف في وجه حمى أطلقت ضد البشرية.

تدافعت الآهات والأحزان، والأرقام تصاعدت يوميا في تأزم وتناحر احتدم له الصِّراع بين الطَّوائف، متوهِّمين اكتساب السّيادة وحكم أعلى الهرم، فكان الأشعث يتلاعب بخصلات شعره المتسخ ويتحدَّث قائلاً:

– هذا صراع طوائف على كرسي الهيمنة، يرشون الغاز القاتل نقمةً..

يريدون إنهاء وجودنا بكبسة زرٍ.

الأشعث تدلّى شعره حلـــــــقات، وانهالت لحيته طيات، مضحك لفطس أنفه وسعة شدقيه، غليـــظ الشفتين، شعره طويل غطَّى أذنيه الصغيرتين حتى كادتا أن لا تظهرا، خفيف الروح، حلوُ الكلام عندما تحدَّث قائلاً:

– هذه هي حرب المناصب والمكاسب.

طاعون الاستحواذ عصف مرة جديدة بالبشرية، ملتهما شعب الخبز، منتزعاً الإشراقة والابتسامة من وجوه المتشرِّدين، لا فرق بين الغني والفقير، الكل سواسية أمام الأفعى الخفية، وسي مروان يتحدَّث في غضبٍ:

– الأفعى الخفية..

نطفة هذا العصر يا صديقي.

سي مروان كهل يحمل في صدره قلبا زاخرا بالعواطف الشّريفة والأحاسيس النّبيلة، ورغبة صـــادقة نافعة للإرشاد، برع في المعارف والآداب، لأحاديثه الجميلة وقع خاص:

– القرار هو جزء لا يتجزأ من كياننا، معركـــة فرضت علينا، ولا يمكن أن نُهزم.. فحتى الشّيطان ذاته لا يمكنه هزمنا.

هكذا ولدنا من قصّة حب الإصرار، من معركة عشق التّصدي والكفاح.

منذ البداية نظرت حورية السمراء إليه كرجل لن يكرِّر الزمن محنته فيه، ولد عنوة في وجه البؤس، وغاية في سبيل التّحرر، وفك قيود مخالب فيروسات نخرت جسد حورية البريئة، أمَّــــا أنوثتها فأكسجين تنفَّس به على مدار الأيام، فوجدته رمــــزاً في أنوثتها وغرورها، وهمَّة في كبريائها، وسندها منذ أعلنت ضعفها، وبكل بساطة أصبح أسيراً بين يديها، فكانت تخاطبه قائلةً:

– أنا أنثى خلقت من حبيبات الكـبرياء في زمن الوباء الفتّاك، خلقت لكي أتصدَّق مـــــن كبريائي لكل محتاج، لكنّي قاسية لا أرحم..

لست دمية جميلة خرساء، ولا فتاة سخية، استثنائية لأنّي طموحة، أميرة على نفسي وملكة على عرش ذاتي...

أنا حورية السمراء.. أعشق الصِّدق والوفاء، وأكره الكذب والرياء، ولدي كفاية من الذكاء، خلقت من الكبرياء لأعلمك معنى البكاء.

المكان الوحيد الذي جعل من الجهات الأربع للكون جهة واحدة، لا يمكن تحديدها في ذات سي مروان منذ ولادته، لكي يتحمل مسؤولية التّحرر، هـــــي جهة ظلِّ حورية السمراء، كونها حملت عنه الحياة، والموت وتكفَّلت بحزنه كله منذ البداية، فكان يعاتب نفسه ويلومها قائلاً:

– أنا جريمة النّسيان..

أنفاسي من ذاكـــــرة الحزن، ولون وجهي بلون المطر الأسود، قاحل الإحساس.. تهبُّ عواصفي في قلوب النساء، فلا تعبثي بأوراقي وأقلامي، ولا تغمسي ريشتك في محبرتي، لأنَّ حبري من حبر الأسود، وأمتعتي من جلد الأفعى التي عطست بفيروسٍ قاتلٍ، لا تفعلي وإلا نال منك الشّقاء.

ابتسمت في وجه سي مروان قائلةً:

– أنا نسيت منذ مدّة من أنت ومن تكون، فمن أنت لكي أخاف من تهديدات يخسف بها الأرق؟ حتى وإن كنت جريمة النّسيان، أو أنت من ذاكرة حزن الصحراء القاحلة تهب عليها العواصف...

لا تنس أنني حورية السمراء.

كابوس قاتل قطبت السماء وجهها في حضوره، تلبّدت غيوما بداية للدموع، فأصابتها عدوى العقم، وتجمدت في عيونها، والرياح عاتية تسقط الأوراق الصّفراء، والأفق حامل لغيوم الشّر الأسود الذي خيَّم على الأرض والبشر.

الظلام طويل، وفي الظِّل كان البصيص أملاً، لكن الهدوء لم يدم طويلاً. زمجر القلق في عقل فاهد، وزأر الخوف من فؤاده بعدما تلقّى الخبر من عند ريم، كانت الساعة السابعة صباحا عندما هاتفته قائلةً:

– سي مروان أصيب بالعدوى..!! نقلوه على جناح السرعة إلى الحجر الصحي.. إنّه تحت المراقبة الطبية المشدّدة هنا في المستشفى.

خبر دمر بيوت الأفكار، وهدَّم أشجار حديقة أشباح أودعوا ثقتهم في أقلام، وأفواه أبدت أسفها، واجتهادها في

سبيل حماية الشعب، بكل الوسائل الممكنة في ظل حمَّى تحمل مظاهر وباء يعرف باسم " الكوفيد ".

رياح متوحِّشة أطفأت موقد الأمان، فاستيقظ سي مروان مفزوعاً، ولم يكن يعلم كم كانت الساعة.. غاب عن الوعي في كابوس رهيب، وعند استيقاظه شعر بحرقة شديدة، جعلته لا يقوى على فتح عينيه.. وحدها "الكورونا" ترعى في دم الأشـــــباح ودماء آخرين اقتنصوا بداية، عرفت التّخطيط، والتّنفيذ متى ما استطاعت إليهم سبيلا.

يحاول سي مروان فتح عينيه دون مقدرة، فيعاود إغلاقهما من جديد، وريـــم واقفة تنظـــــر عبر الزجاج العازل، وتراقب، فتناثرت دموعها بين سطور نقشت نظرات الحزن بين الزهور، تخيَّلت أنَّ الرحيل قد حضر، يجرُّ أذياله بدموع طرقت كوابيسه الأبواب، فكانت تبكي قائلةً:

– ألم يجد أمام عينيه غير ظلّه، يدهسه تحت أرجل الحمَّى السوداء؟

سي مروان وجهه شاحب، وعيناه غائرتان، مستلق في تراخ وذبول، منهكا من العدوى التي كادت تسلُّ جسمه سلاًّ، كان يستفيق قليلا ثم تقسو عليه، تلفح وجهه وتحيله متورِّداً كمن يعود من مرتع الصَّواحب، فثقلت ملامحه، ولم يقوَ على حملها.

رأته ريم يحاول فتح عينيه مجدَّدا لينظر في سقف الغرفة.. لم يتعوَّد الاستيقاظ تحته.

رؤيته ضبابية، استحالت دون ظهور حقيقة تجلَّت بين عينيه مشوَّهة، جعلته يغلق جفنيه ويفتـــــحهما من جديد، وريم تنظر إليه حزينة، وعندما اتضحت له الرؤية تحدَّث بصوت خافت مستغرباً:

– هذا ليس سقف غرفتي...

حاول أن يحرك يديه، لكنَّه عجز، ولم يتمكّن من إخراج الصّرخة.. وجد نفسه مربـــــوطا بجهاز التنفس الاصطناعي، ويداه مكبلتان، وريم تراقبه وهو يرتعش كأنّ سكاكين حـــادّة تقطع جسده. يلتفت يمينا وشمالا بصعوبة، فيرى يديه موصولتين بأنابيب غريبة، عملت كجسر بينه وبين تلك الأجهزة التي تمَّ اصطفافها بالقرب من السّرير منتظرة قبض روحه.

المكان أغرب من الكابوس الذي استيقظ منه: وحدة عزل صُمِّمت خصيصا لاستقبال أمثاله، وبالكاد ظهرت له لوحة على الجدار مكتوب عليها:" لا يجب نزع القناع وأنتم في الغرفة"...حاول سي مروان التّركيز أكثر، فتسارع خفقان قلبه بسرعة شديدة.

تلك الغرفة، والعزلة التي استيقظ عليها بدت له كتلك التي جاءت بها الحمَّى السوداء.. كأنّ الكابوس في بدايته.. سعال متواصل دلَّ على أنّ ما يحدث لم يكن كابوسا.

في تلك الأثناء، شعر سي مروان بدمـــوعه تسيل على خده حارة، ساخنة، من تلك الحمَّى التي أدخلته الغيبوبة، حاول الحديث بكلمات خافتةٍ:

– ما هذا الجنون ...؟! أين أنا ...؟

كانت تلك الحتمية الطبيعية تصرخ في عقله بهذا السؤال اليائس، يحاول أن يرفع يديه وريم تراقبه دون تمكنها من فعل أي شيء، صرخة ألم ٍأخرى تنفلت مــن حنجرته المبحوحة، وسعال متواصل في قناع حدَّ مــن بصره أسفل ذقنه، فتكرر السؤال في ذهنه ثانيةً:

– أين أنا ...؟ ماذا يحدث ...؟

جالت الأسئلة في خاطره، وتشابكت، صانعة ضجيجاً مرعباً في عقله، وزادت من خفقان قلبه، والطَّوق يقيد معصميه مثبتا إياه إلى السرير، والواقي الذي على فمه يحول دون صراخه قائلاً:

– لماذا هذا الآن ...؟!

كان جبين سي مروان يفرز عرقاً غزيراً، يعاني من الحمَّى والسعال، وضيق التنفس، إلا أنَّ قدميه بلا قيود، يحركهما بشكل غريزي جعله يشعر ببعض السعادة والاطمئنان، لكنَّه كان يتساءل في صمتٍ:

– ماذا عن يدي ...؟ لماذا أنا مقيَّد إلى السرير...؟!

كانت ريم تراقب عبر زجاج الغرفة، لحظات فقط يستجمع أفكاره فيصرخ رغم صعوبة الكلام:

– هذا فيروس كورونا.. إذن أنا مصاب؟!

صرخة أخيرة أدخلته غيبوبة، سافر على إثرهــا إلى كابوس مزمن، فكان ينظر يميناً وشــمالاً، وبين قدميه في حلمه الدَّاكن، كأنّه في منتـصف طريق متعرِّج، تغلَّبت عليه العتبات، الحمَّى التي أدخلته الغيبوبة صوَّرت له أسوأ الكوابيس، وسيارة سوداء على متنها رجال بلباس أسود تحاول دهسه.

يتألَّم...

سمعت ريم آهات قوة الحمَّى التي استولت عليه، ثم استيقظ وصرخ يائساً:

– أنقذيني...

في تلك اللحظة، وصل فاهد برفقة الأشــــباح وحورية السمراء، ارتدوا الأقنعة، ودخلوا رفقة ممرض أوصلهم إلى تلك الغرفة، هناك وجدوا ريــــم واقفةً، تنظر في حيرة لما يحدث، وسي مروان يركل بقدميه من شدَّة الألَّــم الذي أدخله مجدَّدا في غيبوبة: رأى نفسه فيها يركض على طريق مجهولة، ويحاول أن يخرج يديه من قبضة حبالٍ صنعت جروحاً غائرة عليهما، فتضاعفت آلامه، وأغرقت الدِّماء يديه في كابوس مرعب.

سمع صوتا من العدم يخاطبه:

– الذّنب ليس ذنبك يا سي مروان.. أنت تتحمَّل وزر من سبقوك، لقد أوصلوك إلى هذه المرحلة.

تذكَّر سي مروان صاحب الصّوت، ذاك المتسكِّع في شارع التّحرر، حرمه الدَّهــــر متعة حياة يهيم فيها، والبؤس حليفه، والتّعاسة ظلّه، كان في حالة يرثى لها...

مات والده مفقوداً، ولم يورِّثه غير اسمه، وماتت أمه على إثر فقدان زوجها المختطف، ولم تترك له سوى دموع الأسى وذلِّ اليتم.
كان عاري القدمين، وثوبه بالٍ، والرُّقع منتشرة فيه، فكأنّها أرقام تُعدُّ بها ليالي بؤسه، وشعره أغبر فاحم، يلوح من تحته وجه زائف الصّفرة، عليلاً وقد أخذ السقام من حجمه.

اتضحت الصورة أمام عيني سي مروان، فأصابه رذاذ عطر التّسول، متتبعا مصدر الصَّـــــوت حتى وجد الفتى المتسوِّل، مرخي الكتفين يتكئ على جذع شجرة ألقى عليه ضوء العمود الكهربائي ظلالاً مخيفةً:

– أي ذنب اقترفت؟ أنا لم أفعل شيئاً.

– الذّنب لا يمحوه الزمن.

– أرجوك أن تفكَّ قيدي.

– مفتاح النجاة في يدك يا سي مروان، لكن لابد أن تجرِّب أولاً الألَّم كما جرّبه غيرك، أعطيك فرصة لم تعط له.

كان السي مروان يائساً أمام جنونه، ثم صرخ في وجهه قائلاً:

– أنا سي مروان، لك كل ما تريد، فقط فكَّ قيدي.

وسط الظّلام الدّامس ظهرت ابتسامة المتسوِّل السّاخرة قائلاً:

– ذهب الدنيا لن يشفع لك، ولن تبرأ من الذنب العظيم...

قتلتموه، وأخفيتموه...

– من هذا الذي أنت تتحدَّث عنه؟ أنا مستعد لتعويض الضَّرر على الرغم من أنني لا يد لي في هذا.

– صدِّقني، قتلوه، ولم يظهروا الجسد...

تحدَّث المتسوِّل وكان ينظر يساراً، والظّلام يخفي ملامحه بالفعل، ولكن سي مروان رأى الابتسامة بوضوح أكثر، وهو يقول بشماتةٍ:

– ممكن أن يكون موتك ثمن توبتهم، لكن..

يجب أن تخلص النِّية أولاً.

– أي نية أيّها الأحمق؟

نظر سي مروان في مصابيح سيارة تقترب بسرعة، فاستفاق من كابوسه، وخرج من غيبوبته صارخاً:

– انقديني يا سمرائي ... انقديني...

نعم أحبَّها سي مروان، والآن يطالبها بأن تنقذه...حبيبة من شدَّة جمالها رآها إلهاً يعبد، ولا يمكن لمسها إلا للبركة والتّهليل في حضرتها، فيوم قالت له:

– أشتهي منك قبلةً.

قال لها:

– خذي قلبي رهينة.

– لماذا يا حبيبي؟

– القبل لا تمنح مقابل شهوةٍ يا حوريتي.

اليوم سي مروان يقبِّل الألم في غياب حورية السمراء، التي لا يمكنها فعل شيء، تنظر إليه رفقة أشباح الحديقة عبر زجاج الغرفة، خائفة أن يصبح ذكرى، ولا يمكنها أن تحلم بشيءٍ أكثر من الذِّكرى معه، في انتظار شيءٍ قد لا يأتي فحمَّى العدوى تأخذه إلى حيث لا يدري.

تصرخ قائلة:

– هل سيعود يا فاهد مع سفن الفجر الجديد؟

ثم استدارت، وسألت الأشعث جاحظ العينين:

– كيف تتحمل هذا كلَّه؟

– لا أعلم ... أظن أنني أحلم؛ أو أنّني الحلم بذاته.. أو ما أنا سوى حلمٍ أصحو منه كل صباح.

عاش الأشعث واقعاً تغيَّبت فيه الأحـــــلام، ولم يصحُ من نومه، فبدا له الموت بحركة خاوية من الحياة، وخالية من نكهة العيش، فسار كما النائم الحالم، ونام في السير وكأنّه ميت.

– تراه حقيقة يا أشعث، المتمدِّد الموجوع هو سي مروان؟ قال فاهد متسائلاً.

عقارب الساعة متوقفة على زمنٍ كان في الماضي الذي تجدَّد من جديد فوق سرير الموت، أم أنّه قد مات منذ سنين طويلة، ولا شيء هنا إلاّ بقايا تنتظر الدّفن، بقايا في ثلاّجة بلا عنوان.. تنتظر تابوتها النِّهائي، وحفرة في الأرض تتحمل هذه البقايا وتحتضنها.

– إذن عشقي الذي ولده فبراير خليفة، قد مات وروحه فقط تحوم ... وتحوم ... وتحوم. قالت حورية السمراء.

– حتمية التّحرر تنتظر شكلاً للحياة، ولا شيء يغري بالحياة. قال لها فاهد.

– حلم رحل ولم يتحقّق، غادر ليستريـــــح من رفقة تفكير، أرهقته المسافات الشّاسعة بين الواقع والخيال، طائراً حراً لا يمكن أن يُسجن لأجل أحدٍ، فإن عاد مرحباً باسم الحقّ.

نتكلّم كثيرا عن الحلم، فهل الحلم نوم يا رفيقي أم هو الخيار الآخر الذي لم نصل إليه؟ قال الأشعث.

الحلم رفيق حياتنا، تولد وأنت تحلم، تعيش وتمارس الحياة وأنت تحلم، تفارق نفسك نحو حياة أخرى لا تعلم عنها شيئا وأنت تحلم، الحلم هو العيش فوق التصور، أن تعيش شيئا لا قدرة لك أن تعيشه، أن تبلغ المنتهى وأنت في

الخطوة الأولى، أن تلامس الثّريا وأنت تحبو فوق الثّرى، وأن تفارق حدود فكرك الضّيق وتعيش المبتغى.

مات سي مروان، فأصبح ذكرى للتّحرر، شرب من كأس الموت كغيره، ولفّ الحزن الجميع بحضور قوس الشّرق واقفة جنبا إلى جنب مع حورية السمراء، والأشباح ظلّها لزرع الوعي وســــط ما خلّفته الحمَّى السوداء، من أحزان مؤلمة للأحياء، تذوَّقوا مرارة الفقدان الحقيقي؛ فلا شيء سوف يجمعهم بسي مروان بعدها غير البقاء على ذكراه، والسّير قدماً على إيقاع مراده في التّحرر مجترِّين ألم الحزن..

عندما ندري ما هي الحياة.. نعلم ما هو الموت.

تمت بتاريخ: 20 ماي 2020 م

الموافق 27 رمضان 1414هـ